

(3)

سلسلة
الموانع

موانع التوبة وأَسبابُها

تأليف
الشيخ السيد مراد سلامة

الناشر



المكتبة العراقية الإلكترونية

(3)



موانع التوبة وأسبابها

تأليف
الشيخ السيد مراد سلامة

الناشر



المكتبة المرادية الالكترونية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل التوبة مهرباً للمُذنبين، وملجأً للمُقصرين، وفتح أبواب رحمته للتائبين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ التوبةَ النصوحَ هي شعارُ الصالحين، ودثارُ المتقين، وأوَّلُ منازلِ السائرين إلى الله تعالى. وقد أمرَ الله عباده بها أمراً جازماً، ووعدَ عليها الفلاحَ والقبول؛ فقال جلَّ وعلا: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وعلى الرغم من جلاء هذا الأمرِ وعِظَمِ فضله، إلا أنَّ سالكَ طريقِ التوبة قد تواجههُ عقباتٌ وموانعٌ تحولُ بينهُ وبين الرجوعِ إلى مولاه، أو تُعطلُ مسيرَهُ وتُقعدُهُ عن مواصلةِ الإنابة. ومن هنا نبعتْ أهميةُ دراسةِ "موانع التوبة وأسبابها"؛ إذ لا يُمكنُ للمرء أن يتخلَّصَ من عائقٍ حتى يَعْرِفَ ماهيَّتَهُ وأسبابَهُ وَيَقِفَ على طُرُقِ علاجه.

ويأتي هذا الكتاب — وهو الجزء الثالث من "سلسلة الموانع" — لِيُسلِّطَ الضوءَ على أبرز هذه الموانع وحَقِيقَتِها، والعللِ والأسبابِ التي تُفَرِّزُها وتُغَذِّبُها، وذلك من خلال المنهج الإسلامي القائم على كتاب الله وسُنَّةِ رُسُولِهِ ﷺ وفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ.

وقد حَرَصْتُ في هذا البحثِ والجمعِ على بيانِ الأسبابِ المؤدية لِكُلِّ مانعٍ من هذه الموانع، لِيَكُونَ الكتابُ كَشْفًا للدَّاءِ، ودليلاً وطريقاً للدَّواءِ، يُعِينُ الموفقينَ على كَسْرِ هذه الأغلالِ والمصارعةِ إلى مغفرةِ رَبِّ الأرضِ والسمواتِ.

أَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ، رَبَّ العَرشِ الكَرِيمِ، أنْ يجعلَ هذا العَمَلَ خالصاً لوجهه الشَرِيفِ، وأنْ يَنْفَعَ بِهِ كَاتِبَهُ وَقَارِئَهُ وَنَاشِرَهُ، وأنْ يَرْزُقَنَا تَوْبَةً نَصُوحاً تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيهِ، وتُئِيلُنَا رِضاهُ وَجَنَّاتِهِ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم وباركَ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِينَ.

كَتَبَهُ

الشيخ السيد مراد سلامة

الفصل الأول تعريف التوبة وأركانها وشروطها

المبحث الأول: تعريف التوبة لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: أركان التوبة وشروطها.

المبحث الثالث: فضل التوبة وقبولها.

المبحث الرابع: الفرق بين التوبة النصوح وغيرها.

المبحث الأول: تعريف التوبة لغة واصطلاحاً.

أخي القاري الكريم: إن أعظم ما تقر به العيون، وتطمئن به النفوس، وتجتمع عليه قلوب التائبين، هو معرفة حقيقة "التوبة" والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى. فهي الملاذ الآمن لكل عاصٍ نادم، والواحة الظليلة التي يأوي إليها التائبون في ركب الحياة.

والتوبة في اصطلاح الشرع ليست مجرد كلمات تُلقى على الألسنة، ولا هي التلذذ بالندم المؤقت الذي يزول بزوال أسبابه؛ بل هي عقد إيماني، ونقلة روحية جذرية تنهض فيها النفس من كبوة المعصية إلى فضاء الطاعة والرضوان. إنها الندم الصادق الذي يمزق حجب الغفلة، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب، ورد المظالم إلى أهلها، إثارةً لمرضاة الخالق جل جلاله.

تعريف التوبة في اللغة:

التَّوبَةُ مصدر قولك: تاب يتوب وهو مأخوذ من مادّة (ت وب) التي تدلّ على الرجوع، يقال:

تاب من ذنبه، أي رجع عنه توبة ومتاباً، والوصف منه تائب، والتَّوب: ترك الذنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار؛ فإنّ الاعتذار على ثلاثة أوجه:

إمّا أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول فعلت لأجل كذا، أو يقول: فعلت
وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك وهذا الأخير هو التّوبة، يقال: تاب إلى الله
أي تذكّر ما يقتضي الإنابة، نحو قوله سبحانه: **{ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا }** (النور/
٣١) أي عودوا إلى طاعته وأنبيوا إليه..

ويقال: تاب الله عليه أي قبل منه التّوبة، والتائب يقال لباذل التّوبة ولقابل التّوبة
فالعبد تائب إلى الله. والله تائب على عبده، والتّوَاب العبد الكثير التّوبة، وذلك
بتركه كلّ وقت بعض الذّنوب على التّرتيب حتّى يصير تاركا لجميعه، وقد يقال
لله عزّ وجلّ ذلك (أي تَوَّاب) وذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالا بعد حال،
والمتاب في قوله تعالى **{ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا }**
(الفرقان / ٧١) يقصد به التّوبة التّامة وهي الجمع بين ترك القبيح وتحرّي الجميل.

وجاء في الصّحاح: التّوبة الرّجوع من الذّنْب، وفي الحديث: «النّدم توبة»^(١)
وكذلك التّوب مثله، خلافا للأخفش الذي ذهب إلى أنّ التّوب جمع توبة مثل
عوم وعومة، ويقال تاب إلى الله توبة ومتابا، وقد تاب الله عليه، وفقه للتّوبة
وعاد عليه بالمغفرة. واستتبت فلانا عرضت عليه التّوبة أو سألته أن يتوب،
والتّابة في قول الشّاعر:

تبت إليك فتقبّل تابتي.

يراد بها التَّوبَةُ، أبدلت الواو ألفا لضرب من الخَفَّة (١).

التوبة في الاصطلاح:

قال الرَّاغِب: التَّوبَةُ في الشَّرْع: ترك الذَّنْب لقبحه والنَّدَم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة. وقال الجرجاني: التَّوبَةُ هي الرَّجُوع إلى الله بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكلِّ حقوق الرِّبِّ، وقيل: التوبة الاعتراف والنَّدَم والإقلاع. وقيل: التوبة في الشَّرْع: النَّدَم على معصيته من حيث هي معصية، مع عزم ألا يعود إليها إذا قدر عليها.

فقولهم على معصية: لأنَّ النَّدَم على المباح أو الطَّاعة لا يسمَّى توبة، وقولهم من حيث هي معصية: لأنَّ من ندم على شرب الخمر لما فيه من الصَّداع أو خَفَّة العقل أو الإخلال بالمال والعرض لم يكن تائباً شرعاً، وقولهم: مع عزم ألا يعود، زيادة تقرير؛ لأنَّ النَّدَم على الشَّيء لا يكون إلَّا كذلك، ولذلك ورد في الحديث «النَّدَم توبة». وقولهم: إذا قدر عليها، إشارة إلى أنَّ من سلب القدرة على معصية مثل الزَّنا وانقطع طمعه عن عود القدرة إليه لم يكن ذلك توبة منه.

إطلاقات الكلمة في القرآن الكريم:

١ - انظر مقاييس اللغة (٣٥٧ / ١) ، ومفردات الراغب (٧٥) والصحاح (٩٢ / ١) ، ولسان العرب (٤٥٤ / ١) . ١ ، ٢ مفردات الراغب

(٧٦) والتعريفات للجرجاني (٧٤) ، وكشاف اصطلاحات الفنون (٢٣١ / ١) .

وردت كلمة التَّوْبَة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

١- بمعنى التَّجَاوُز والعفو: وهذا مقيد بعلى، كقوله تعالى {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} (البقرة/ ٥٤).

٢- بمعنى الرَّجُوع والِإِنَابَة: وهذا مقيد بإلى، كقوله تعالى {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ} (النور/ ٣١).

٣- بمعنى النَّدَامَة: وهذا غير مقيد لا ب (إلى) ولا ب (على): كقوله تعالى: {فَإِنْ تُبْتِغْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} (التوبة/ ٣). (١)

المبحث الثاني: التوبة النصوح

التوبة النصوح:

قال الجرجاني: التَّوْبَة النَّصُوح هي توثيق العزم على ألا يعود بمثله.

وقيل هي ألا يبقى (التائب) على عمله أثرا من المعصية سرا وجهرا، وهذه التَّوْبَة هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلا وآجلا.

وقال التَّهَانُوي: التَّوْبَة النَّصُوح وهي من أعمال القلب تعني تنزيه القلب عن الذَّنُوب، وعلامتها أن يكره العبد المعصية ويستقبحها فلا تخطر له على بال ولا ترد في خاطره أصلا.

١ - موسوعة نضرة النعيم

وأكمل التوبة وأعظمها هي التوبة النصوح التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التَّحْرِيم: ٨].

والتوبة النصوح من النصح، حيث تنصح القلب، وتخلصه ثم لا تغشه ولا تخذعه، وهي تنزيه القلب عن الذنوب، فالتوبة النصوح تجمع الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، وإضمار عدم العودة إلى الآثام وتجنب خلطاء السوء.

قال الحسن البصري رحمه الله: "التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره".

وقال الحسن البصري رحمه الله: "التوبة النصوح ما تنصحون به أنفسكم"

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: "أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه".

والتوبة النصوح تجب ما قبلها، وتنقل صاحبها بعون الله إلى الهدى، وهي توبة صادقة روحها الإخلاص والخوف من الله، وتبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، حينها يتخلص القلب من رواسب المعاصي، وأدران الذنوب والخطايا.

قال القرطبي رحمه الله: "التوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع".

وهذه التوبة هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً.

ويقول العلامة السعدي رحمه الله: "والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجه الله والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله".

قال أبو بكر محمد بن موسى الواسطي: توبة لا لعقد عوض؛ لأنَّ مَنْ أذنب في الدنيا لرفاهية نفسه، ثم تاب طلباً لرفاهيتها في الآخرة؛ فتوبته على حظ نفسه لا لله.

وقال أبو بكر الوراق: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وتضيق عليك نفسك كتوبة الثلاثة الذين خَلَّفُوا.

وقال أبو بكر الرقاق المصري: ردُّ المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات.

وقال رويم الراعي: هو أن تكون لله وجهًا بلا قفا، كما كنت له عند المعصية قفا بلا وجه.

وقال ذو النون: علامتها ثلاث: قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام.

وقال سري السقطي: لا تصح التوبة النصوح إلا بنصحة النفس من المؤمنين؛ لأن من صحّت توبته أحب أن يكون الناس مثله.

وعلامة التوبة النصوح:

أن يكره العبد المعصية، ويستقبحها فلا تخطر له على بال، ولا ترد في خاطره أصلاً، ولا يبقى على عمله أثر من المعصية سرّاً أو جهراً، ثم الإقبال على الطاعة، والنفور من العصيان والمحرمات.

أما أنواعها:

فقليل هي نوعان: توبة الإنابة وتوبة الاستجابة.

فتوبة الإنابة أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك.

وتوبة الاستجابة أن تستحي من الله لقربه منك، قال تعالى: **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}** (ق / ١٦) وقيل: بل ثلاثة:

التوبة الصحيحة: وهي أنه إذا اقترف العبد ذنباً تاب عنه بصدق في الحال.

والتوبة الأصح: وهي التوبة النصوح (وقد سبق تعريفها).

والتوبة الفاسدة: هي التوبة باللسان مع بقاء لذة المعصية في خاطر^(١).

١ - التعريفات (٧٤) ، وكشاف اصطلاحات الفنون (١ / ٢٣٣) .

﴿ فروق: التوبة والإنابة والأوبة: ﴾

يقال لمن خاف العقاب هو صاحب توبة

ولمن يتوب بطمع الثواب هو صاحب إنابة

ولمن يتوب لمحض مراعاة أمر الله فهو صاحب أوبة.

وقيل:

التوبة صفة عامة المؤمنين. قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ} (النور/ ٣١).

والإنابة صفة الأولياء والمقربين. قال تعالى: {وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} (ق/ ٣٣)

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (ص/ ٣٠) (١)

المبحث الثالث: أركان التوبة وشروطها.

أخي الحبيب : سنستعرض في هذا المبحث — بإذن الله تعالى — تفصيل هذه الأركان والشروط، مُستَندِينَ إلى المحكم من كتابِ الله، والمُثَبَّت من سُنَّةِ رسوله ﷺ، وكلامِ المحققين من أئمة الإسلام؛ لِيَكُونَ التائبُ على بصيرةٍ من أمره، فيبني توبته على أساسٍ مَتِينٍ يَعِصِمُهُ مِنَ النُّكُوصِ وَالرَّجْعَةِ.

هل هناك فرق بين الركن والشرط ؟

١ - راجع : لسان العرب، مادة: أوب، وتوب.

نعم، هناك فرق اصطلاحى دقيق بين "الأركان" و"الشروط" عند أهل العلم واللغة، وتوضيح ذلك فيما يلي:

أولاً: الفرق من حيث التعريف والمفهوم

الركن: هو ما تتوقف عليه حقيقة الشيء، ويكون جزءاً داخلياً ومكوّناً أساسياً من ماهيته. (مثل الركوع بالنسبة للصلاة؛ فهو جزء منها ولا تقم الصلاة دونه).

الشرط: هو ما يتوقف عليه صحة الشيء ووجوده، ولكنه خارج عن ماهيته وحقيقته وليس جزءاً منه. (مثل الوضوء بالنسبة للصلاة؛ فهو شرط لصحتها، لكنه ليس جزءاً من أفعال الصلاة نفسها).

الأركان (الداخلية):

تتمثل في المكونات الذاتية والنفسية للتوبة نفسها؛ كالندم القلبي، والإقلاع العملي عن الذنب، والعزم الأكيد على عدم العودة. فهذه الأفعال هي "جوهر التوبة" وحقيقتها التي لا تتحقق إلا بها.

الشروط (الخارجية والملحقة):

تتمثل في الضوابط والقيود المحيطة بالتوبة التي تتوقف صحتها وقبولها عليها من الخارج، مثل:

الإخلاص لله تعالى: قيد قلبي وضابط ناظم للتوبة يجعلها خالصة لوجهه الكريم وليست رياءً.

الوقوف قبل الغرغرة وطلوع الشمس من مغربها: شرط زمني خارجي لصحة القبول.

رد الحقوق والمظالم لأهلها: إجراء عملي خارج حقيقة الندم والإقلاع، ولكنه شرط لازم إذا تعلق الذنب بحقوق العباد حتى تكتمل صحة التوبة وتبرأ الذمة.

أركان التوبة:

التوبة النصوحة تقوم في عمقها على أركان أساسية لا تصح ولا تستقيم إلا بها، وقد لخصها أهل العلم في الأمور التالية:

الركن الأول: الإقلاع عن الذنب فوراً:

وهو الكف العملي عن المعصية وتركها في الحال، فلا يعقل أن يدعي التوبة من لا يزال مقيماً على ذنبه، مصراً على فعله.

عن عوف بن مالك قال: ما من ذنب إلا وأنا أعرف توبته، قال: قيل يا أبا عبد الرحمن وما توبته؟

قال: أن تتركه ثم لا تعود إليه.^(١)

عن الربيع بن خثيم قال: كان إذا جاءه الرجل قال: يا عبد الله اتق الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك فكله إلى عالمه، لأننا في العمل أخوف مني عليكم في الخطأ، وما خياركم اليوم بخيره، ولكنه أخير من آخر شر منه، لا يتبعون

١ - الجامع لعلوم الإمام أحمد - الأدب والزهد (٢٠ / ٢٢١)

الخير حق اتباعه، ولا يفرون من الشر حق فراره، ما كل ما نزل على محمد أدركتم، ولا كل ما تقرأون تدرّون ما هو، ثم يقول: السرائر السرائر التي تخفى على الناس، وهي عند الله بواد، التمسوا دواءهن، ثم يقول: وما دواؤهن؟

يتوب ثم لا يعود. (١)

عن الربيع بن خثيم، أنه قال لأصحابه أتدرون ما الداء؟

وما الدواء؟

وما الشفاء؟

قالوا: لا. قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود. (٢)

الركن الثاني الندم على ما سلف:

وهو حرقه القلب وألمه على ارتكاب المخالفة وتضييع حق الله تعالى. والندم هو روح التوبة وعمادها، وقد ثبت في الحديث الشريف: (الندم توبة).

الندم على ما سلف من القبائح

عن أيوب الفلسطيني قال: مكتوب في مزامير داود عليه السلام: تدري لمن اغفر من عبادي؟

١ - "الزهد" ص ٤٠٦ - ٤٠٧

٢ - "الزهد" ص ٤٠٧

قال: لمن يارب؟

قال: للذي إذا أذنب ذنباً ارتعدت لذلك مفاصله؛ ذاك الذي أمر ملائكتي أن لا تكتب عليه ذلك الذنب.^(١)

عن الحسن قال: إن الرجل يذنب الذنب فما ينساه، وما يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة.^(٢)

عن الحسن قال: قال رسول الله - ﷺ -: "إن العبد ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة" قالوا: يا رسول الله، وكيف يدخله الجنة؟ قال: "يكون نصب عينه فاراً تائباً حتى يدخله ذنبه الجنة"^(٣).

الركن الثالث: العزم الأكيد على عدم العودة:

وهو عقد النية الجازمة في قلب التائب ألا يعود إلى ذلك الذنب أبداً، مستشعراً عظمة من عصاه، ومبتعداً عن أسباب الوقوع فيه مجدداً.

المعنى: أنه يعزم، ويصمم في نفسه، وقت توبته: أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى.

١ - "الزهد" ص ٩٢ - ٩٣

٢ - "الزهد" ص ٣٣٨

٣ - رواه ابن المبارك في "الزهد" (١٦٢) عن المبارك بن فضالة به. وضعفه الألباني في "الضعيفة" (٢٠٣١). "الزهد" ص ٤٧٤

ثم قد ينفسخ عزمه، وتضعف نفسه، ويقع فيه، فلا ييطل توبته الأولى، بل يجب عليه أن يتوب من ذنبه الثاني من جديد، وبنفس الطريقة الأولى، وبنفس شروط التوبة الأولى.

روى مسلم في "صحيحه" (٢٧٥٨) في "باب: قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَإِنْ تَكَرَّرَتِ الذُّنُوبُ، وَالتَّوْبَةُ":

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ اِعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ. قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: لَا أَذْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ اِعْمَلْ مَا شِئْتَ. (١)

وقد ترجم عليه الإمام ابن حبان في "صحيحه": "ذِكْرُ تَفْضُلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَى التَّائِبِ الْمُعَاوِدِ لِذَنْبِهِ بِمَغْفِرَةٍ كُلَّمَا تَابَ وَعَادَ يَغْفِرُ" (٢)

قال الإمام أبو العباس القرطبي، رحمه الله: "وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب، وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود

١ - «مسند أحمد» (١٦/ ٢٤٦ ط الرسالة) «وأخرجه مسلم (٢٧٥٨)، وابن حبان (٦٢٥)»

٢ - «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (٢/ ٣٩٢).

إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنها انضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه". انتهى، من "(١).

وفي الحديث الآخر: عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»: (٢)

وهذه الصيغة تفيد تكرار وقوع الخطأ منهم مرات حيث جاءت بصيغة المبالغة.

قال ابن الأمير الصنعاني رحمه الله: "خطاؤون: كثير و الخطأ، إذ هو صيغة مبالغة، والحديث دال على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان لما جبل عليه هذا النوع من الضعف، وعدم الانقياد لمولاه في فعل ما إليه دعاه وترك ما عنه نهاه، ولكنه تعالى بلطفه فتح باب التوبة لعباده، وأخبر أن خير الخطائين التوابون الكثيرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ" انتهى من "(٣)

أن الواجب على المسلم: أن يجدد التوبة كلما وقع في الذنب، ولا يتركها خوفاً من أن يقع في الذنب مرة أخرى، فهذا من مداخل الشيطان لصرف العبد عن التوبة.

١ - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم" (٨٦ / ٧)

٢ - أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وعبد بن حميد (١١٩٧)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، والحاكم ٤ / ٢٤٤، والدارمي (٢٧٢٧)، وابن عدي ٥ / ١٨٥٠، والبيهقي في الشعب (٧١٢٧)، وابن حبان في المجروحين ٢ / ١١١، والمزي ٢١ / ١٣١.

٣ - سبل السلام شرح بلوغ المرام" (٨ / ٢٠٥ ت حلاق).

فقد روى الإمام أحمد عن سعيد الجريري قال: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، الرَّجُلُ يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ؛ حَتَّى مَتَى؟

قَالَ: "مَا أَعْلَمُ هَذَا إِلَّا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ" (١)

وروى الطبري في تفسير عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يُسأل عن هذه الآية (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا) قال: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب (٢)

" لا يشترط في التوبة عدم العود إلى الذنب الذي تاب منه، عند أكثر الفقهاء. وإنما تتوقف التوبة على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته .

فإن عاوده، مع عزمه حال التوبة على ألا يعاوده: صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة، ولا يعود إليه إثم الذنب الذي ارتفع بالتوبة، وصار كأن لم يكن؛ وذلك بنص الحديث: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) " انتهى (٣).

شروط صحة وقبول التوبة

١ - "الزهد" (١٦٠٩)

٢ - "تفسير الطبري" (١٧/ ٤٢٣).

٣ - "الموسوعة الفقهية الكويتية" (١٤/ ١٢٣):

تختلف شروط التوبة بحسب تعلق الذنب؛ فمنها ما يتعلق بحق الله تعالى،
ومنها ما يتعلق بحقوق العباد:

أولاً: الشروط العامة (في كل توبة)

الإخلاص لله تعالى: أن يكون الباعث على التوبة هو خوف الله عز وجل،
ورجاء رحمته، وطلب مرضاته، لا لأرضاء المخلوقين أو لغرض دنيوي.

معنى الإخلاص في التوبة

أن يترك العبد الذنب لأنه معصية لله.

ألا يكون الباعث عليها الرياء أو السمعة.

أن يتخلص القلب من كل شوائب الهوى أو الخوف من غير الله.

عن الحسن البصري - رحمه الله - قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر
بها، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي، وكان أول داخل إلى المسجد
وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم
إلا قالوا: "انظروا إلى هذا المرائي" فأقبل على نفسه فقال: لا أراني أذكر إلا
بشر، لأجعلن عملي كله لله - عز وجل - فلم يزد على أن قلب نيته، ولم يزد
على العمل الذي كان يعمل، فكان يمر بعد بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً

الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] انتهى بتصرف.(١)

عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ
قال: "كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل
الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين فهل له توبة؟ فقال:
لا، فقتله، فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم
فقال: إنه قتل مائة نفس فهل من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة.
انطلق الى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى
معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق
أتاه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة
الرحمة: جاء تائبا مقبلا إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل
خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي حكما - فقال: قيسوا ما
بين الأرضين فألى أيتها كان أدنى فهو له، فقاوسا فوجدوه أدنى الى الأرض التي
أراد، فقبضته ملائكة الرحمة" متفق عليه.(٢)

الشرط الثاني: أن تكون في وقت الإمكان: أي قبل أن تضيق سبل القبول،
وذلك بأن تقع التوبة قبل غروب الشمس من مغربها، وقبل حضور الأجل وبلغ
التراقي (الاحتضار)، ولا بد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة، فإن لم
تكن كذلك فلا توبة للإنسان، فعند حضور الأجل تنقطع توبة العبد ولا تقبل منه

١ - أخرجه ابن أبي حاتم - كما في تفسير ابن كثير ٣ / ٢٦٩ -

٢ - أخرجه أحمد ح ١٠٧٢٧ م صحيح مسلم - (ج ١٣ / ص ٣٣٨)

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يقبل
توبة العبد ما لم يغرغر". (١)

أي إذا لم تبلغ الروح الحلقوم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ *
وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-
٨٥].

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله:

وتقبل التوبة قبل الغرغرة كما أتى في الشريعة المطهرة

أي حال الاحتضار عند حشجة الروح في الصدر إيذانا بالفراق كما قال: ﴿كَلَّا *
إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّفْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ *
إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٠].

فمن تاب عند الموت حين ينكشف الغطاء، ويعاين الملائكة، وأمور الآخرة
وصار الغيب شهادة، لم ينفعه حينها الإيمان ولا التوبة.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: "التوبة مبسوطة ما لم ينزل ملك الموت". (٢)

بادر إلى التوبة الخلصاء مبتدئاً والموت ويحك لم يمدد إليك يداً

١ - «مسند أحمد» (١٠ / ٣٠٠ ط الرسالة): «وأخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» ٥ / ١٩٠، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٣)»

٢ - «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» (ص ٥٨١ ت عوض الله)

وصح عن النبي ﷺ أن زمن التوبة ينقطع إذا طلعت الشمس من مغربها، فحينها يؤمن الناس أجمعون، ولا ينفعهم ذلك عند الله، ولا يغني عنهم شيئاً.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها" (١).

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

إن التوبة التي يقبلها الله هي التي تصدر من النفس التي هزها الندم من الأعماق حتى استفاقت فثابت وأنابت وهي في فسحة من العمر، وبحبوحة من الأمل رغبة في التطهر وسلوك طريق جديد. هنا تكون التوبة لا تأجيل فيها ولا تسويق.

وذلك بالمبادرة في زمن المهلة، والمجاهدة في طريق الشهوة، والاستعلاء في عالم المادة واللذة.

أسوف توبتي خمسين عاماً وظني أن مثلي لا يتوب

«دخل قوم على بشر الحافي وهو مريض، فقالوا له: على ماذا عزمت؟ قال:

١ - أخرجه البخاري (٢٣٨٦/٥)، رقم (٦١٤١)، ومسلم (١٣٧/١)، رقم (١٥٧).

عزمت أني إذا عوفيت تبت. فقال له رجل منهم: فهلاً تبت الساعة؟ فقال:

يا أخي، أما علمت أن الملوكة لا تقبل الأمان ممن في رجليه القيد، وفي رقبته الغل، إنما يقبل الأمان ممن هو راكب الفرس والسيف مجرد بيده، فبكي القوم جميعاً.»

ومعنى هذا أن التائب في صحته بمنزلة من هو راكب على متن جواده وبيده سيف مشهور، فهو يقدر على الكر والفر والقتال، وعلى الهرب من الملك وعصيانه، فإذا جاء على هذه الحال إلى بين يدي الملك ذليلاً له، طالباً لأمانه، صار بذلك من خواص الملك وأحبابه؛ لأنّه جاء طائعاً مختاراً له، راغباً في قربه وخدمته.

وأما من هو في أسر الملك، وفي رجليه قيد، وفي رقبته غل، فإنه إذا طلب

الأمان من الملك فإنّما طلبه خوفاً على نفسه من الهلاك، وقد لا يكون محبّاً للملك ولا مؤثراً لرضاه، فهذا مثل من لا يتوب إلا في مرضه عند موته، والأول بمنزلة من يتوب في صحته وقوّته وشيبيته، لكن ملك الملوكة، أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين وكلّ خلقه أسير في قبضته، لا يعجزه منهم أحد؛ لا يعجزه هارب، ولا يفوته ذاهب

كما قيل: لا أقدر ممن طلبته في يده، ولا أعجز ممن هو في يد طالبه، ومع هذا فكل من طلب الأمان من عذابه من عباده آمنه على أي حال كان، إذا علم منه الصدق في طلبه.

الأمان الأمان وزري ثقيل وذنوبي إذا عددت تطول

أوبقتني وأوثقتني ذنوبي فترى لي إلى الخلاص سبيل^(١)

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: "التأني في كل شيء حسن إلا في ثلاث

خصال: عند وقت الصلاة، وعند دفن الميت، والتوبة عند المعصية"^(٢)

وإن كان الدين الإسلامي قد ذم الاستعجال، وجعل العجلة مذمومة في غالب الأمور، إلا أن الاستعجال والمبادرة في التوبة أمر محمود، ومرغب فيه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ

يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:

١٧].

أي: يتوبون من قريب قبل أن يتبين لهم الموت ويدخلوا في سكراته، ويحسوا

أنهم على عتباته، فيتوبون توبة ندم وانخلاع عن الخطيئة، ونية على العمل

الصالح.

وقد من الله على عباده بأن جعل بعد الذنب فسحة للتوبة، كما جاء في الحديث

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ صَاحِبَ الشَّامِلِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سَبْعَ

^١ - «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» (ص ٥٨٠ ت عوض الله):

^٢ - «تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي» (ص ١٠٩)

سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَمِلَ الْخَطِيئَةَ فَإِنْ نَدِمَ عَلَيْهَا وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْهَا
أَلْقَاهَا عَنْهُ وَإِلَّا كَتَبَهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً" (١).

❦ ثانياً: الشروط المتعلقة بحقوق العباد (الشرط الرابع) إذا كانت المعصية

متعلقة بحقوق الآدميين (من أموال، أو أعراض، أو دماء)، فعليه أن يرد حقوق
العباد التي عليه إلى أصحابها إن كانوا موجودين ومعروفين له، أو إلى ورثتهم
إن كان ذلك ممكناً، وإذا مات أصحابها بأن يذهب ويقول لصاحب الحق: يا
فلان في أيام طيشي وغروري وبُعدي عن الله أخذت منك شيئاً، وأنا أرجو أن
تسامحني، فإذا سامحه فقد تنازل عن حقه، وبرئت ذمته من هذا الحق، فلا بد من
الوفاء أو الإبراء، فإن صدقت توبته، وعجز عن الوفاء بهذه الحقوق، فإن الله
يقبل توبته، ويُرضي عنه أهل هذه الحقوق يوم القيامة.

فمن هداه الله ووفقه إلى التوبة والندم على ما فات - أن يتخلص من المال
الحرام الذي أخذه عن طريق السرقة أو الخيانة أو غيرها، حتى يرضى الله عنه،
فيؤدي الحق الذي عنده لصاحبه إن كان معروفاً لديه، أو إلى ورثته إن كان ذلك
ممكناً، وإلا فيتصدق به على نية صاحبه، وأن يكثر لهم من الدعاء والاستغفار،
ويطلب من الله العفو والمسامحة، وإن رحمة الله واسعة لمن تاب وأناب
وعمل صالحاً ثم اهتدى، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

١ - أخرجه الطبراني (٧٧٦٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٢٤/٦)، والبيهقي في «الشعب» (٦٦٥٠) من طريق إسماعيل بن عياش
به. وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٢٠٩).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

المبحث الرابع

هل تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

اعلم - بارك الله فيك - : أن باب التوبة إلى الله عز وجل مفتوح لا يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها، وتتناول الشريعة الغراء أحكام العبادات والمعاملات بمنهج دقيق يجمع بين كمال الرحمة وسعة الفضل الإلهي. ومن المسائل المهمة التي تُميسر الفقه السلوكي وتزيل الإشكال عن السالكين: حكم من تاب من ذنب بعينه توبةً نصوحاً مستوفية لشروطها، مع بقاءه مُصرّاً على ذنب آخر مغاير له، أو متلبساً بمعصية سواه.

فهل تُقبض التوبة من المعصية الأولى ويُثاب العبد عليها، أم تُردّ وتكون كمن لم يتب ما دام الإصرار قائماً على غيرها؟ وهل تتجزأ التوبة في أصل صحتها وقبولها عند أهل السنة والجماعة

هذا ما سنفصله في هذا الفصل، مبينين أقوال أهل العلم، ومستدلين بما ورد في نصوص الكتاب والسنة، لنضع طالب الحق على بينة من أمره في سيره إلى ربه جل وعلا.

قال القرطبي: "اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]". (١)

محل الخلاف:

اختلف العلماء في التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ وذلك على ثلاثة أقوال كالآتي:

القول الأول: تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء (٢)؛ وعزى النووي هذا القول إلى أهل السنة. (٣)

القول الثاني: لا تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ ولا تصح توبته، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رحمه الله في رواية عنه (٤)؛ والمعتزلة. (٥).

القول الثالث: أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على غيره من نوعه، كمن تاب من ربا الفضل مع الإصرار على ربا النسيئة أو تاب من الزنا بامرأة معينة مع الإصرار على الزنا بغيرها، أما التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره ليس من نوعه، كمن تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر، أو تاب من ترك

١ - الجامع لأحكام القرآن (٥ / ٩٠).

٢ - تفسير الألوسي ٢٨ / ١٥٩، بلغة السالك ٤ / ٧٣٨، الفواكه الدواني ١ / ٨٩، الروضة ١١ / ٢٤٩، مدارج السالكين ١ / ٢٧٣، ٢٧٤، الآداب الشرعية ١ / ٦٥، ٦٦.

٣ - شرح النووي على مسلم (١٧ / ٦٣)، وانظر التوبة من الذنوب للغزالي (ص: ٥٣)، ومختصر المعتمد للقاضي أبي يعلى (ص: ٢٠٣)، لوامع الأنوار البهية (١ / ٣٨٣).

٤ - مدارج السالكين (١ / ٢٧٣-٢٧٥).

٥ - الجامع لأحكام القرآن (٥ / ٩٠)؛ غذاء الألباب (٤ / ٢٠٧).

الصلاة أو التهاون فيها ولم يتب عن الربا، فتوبته في الذي تاب عنه صحيحة؛
وإلى هذا ذهب ابن القيم رحمه الله. (١).

استدل أصحاب القول الأول القائلون بجواز التوبة من ذنب مع الإصرار على
غيره بالآتي:

١ - إن التوبة فرض واجب من كل ذنب، فإذا تاب من ذنب فقد أدى واجباً
وبقي عليه التوبة من الذنب الآخر، كمن صام أياماً من رمضان وأفطر بعضاً
منها فإن ما أفطره لا يفسد ولا يبطل ما صامه، أو كمن ترك الحج وأتى بالصلاة
والصيام والزكاة.

٢ - إن التوبة من ذنب مع الإقامة على غيره تصح على الراجح من أقوال أهل
العلم، وإن كانت توبة قاصرة غير كاملة.

٣ - إن التوبة تتبع كالمعصية وتتفاضل في كميتها كما تتفاضل في كفيّتها،
فكلّ ذنب له توبة تخصّه، ولا تتوقّف التوبة من ذنب على التوبة من بقية
الذنوب، كما لا يتعلّق أحد الدّنين بالآخر، وكما يصحّ إيمان الكافر مع إدامته
شرب الخمر والزّنا تصحّ التوبة عن ذنب مع الإصرار على آخر. (٢).

١ - مدارج السالكين (١/ ٢٩٨).

٢ - أسباب رفع العقوبة عن العبد لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ تحقيق علي بن نايف الشحود ص ٩.

- الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٩٠)؛ غذاء الألباب (٤/ ٢٠٧)

قال النووي رحمه الله: "وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصراً على ذنب آخر وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني ولم تبطل توبته هذا مذهب أهل السنة في المسألتين". (١).

واستدل أصحاب القول الثاني القائلون بعدم جواز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره بالآتي:

إن التوبة رجوع إلى الله تعالى عن معصيته، فمن تاب من ذنب مع إصراره على غيره لم يرجع عن معصية الله.

📌 ونوقش:

قال ابن تيمية: "عند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعله خالصاً لله موافقاً لأمر الله، فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصياً في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً في غيره، والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال". (٢).

📌 واستدل أصحاب القول الثالث القائلون بجواز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره من غير نوعه بالآتي:

١ - شرح مسلم للنووي (١٧/ ٥٩-٦٠).

٢ - الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١٠ / ٣٢٣.

قال ابن القيم رحمه الله: "هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟

فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد رضي الله عنه.

والذي عندي في هذه المسألة: أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه.

وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه فتصح، كما إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر مثلاً فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة. فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس". (١).

وقال القرطبي: "وتصح - التوبة - من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه، خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب. ولا فرق بين معصية ومعصية هذا مذهب أهل السنة". (٢)

١ - مدارج السالكين مختصراً (١/ ٢٧٣-٢٧٥).

٢ - راجع: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٩٠).

وقال في غذاء الألباب: "وتصح من بعض ذنوبه في الأصح خلافاً للمعتزلة؛ نعم لا تصح التوبة من ذنب أصر على مثله مثل أن يتوب من زناه يوم كذا أو في فلانة وهو مُصر على الزنا بغيرها أو بها؛ وإنما تاب من الزنا الذي صدر منه أولاً دون ما يفعله في المستقبل؛ فهو مُصر على أصل فعل الزنا فلا تقبل توبته منه حينئذ والله أعلم".^(١)

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "وهل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ للعلماء في هذا ثلاثة أقوال: الأول: أنها تصح، والثاني: أنها تصح إن كان الذنب من غير الجنس، والثالث: لا تصح. والصحيح: أنها تصح من ذنب مع الإصرار على غيره، لكن لا يستحق اسم التائبين على سبيل الإطلاق؛ فلا يستحق وصف التائب، ولا يدخل في مدح التائبين؛ لأن توبته مقيدة من هذا الذنب المعين. ومثال ذلك: إذا تاب رجل من الزنا لكنه يتبع النساء بالنظر المحرم فإن توبته من الزنا تصح على القول الراجح؛ لكن لا يستحق وصف التائب على سبيل الإطلاق؛ وعلى القول بأنها تصح إذا كانت من غير الجنس: فإنها لا تصح؛ وإذا تاب من الزنا مع الإصرار على الربا فإنها تصح؛ لأن الربا ليس من جنسه".^(٢)

١ - غذاء الألباب (٤/ ٢٠٧).

٢ - راجع: تفسير القرآن للشيخ ابن عثيمين (٤/ ١٦١).

فهذا من حيث صحة التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره، والواجب على المسلم أن يتوب من جميع ذنوبه، وأن يستقيم على أمر الله، لينجو من عذاب الله.

أما التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره فهي وإن كانت توبة صحيحة من ذلك الذنب، لكنها توبة ناقصة، وقاصرة، وليست هي التوبة النصوح التي وعد الله تعالى أهلها بالمغفرة والجنة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨].

القول الرابع:

الذي يظهر لي هو رجحان القول الثالث، وهو ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله، وذلك أن الذنوب أنواع، وقد يجد الإنسان قوة في ترك بعضها، وتغلبه نفسه وشيطانه على بعضها الآخر، فلو اشترط لذلك التوبة من جميع الذنوب، لتعسرت التوبة على كثير من الناس؛ فأما إن تاب من ذنب، مع الإصرار على ذنب آخر من نوعه، فحقيقته لم يتب من الذنب، وإنما هو مصر عليه ولكن بطريقة أخرى. (١).

قال ابن القيم رحمه الله: "النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

١ - المباحث العقدية المتعلقة بالكبائر ومركبتها في الدنيا لسعود بن عبد العزيز الخلف؛ نشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص ٨٥.

الأول: تعميم جميع الذنوب بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرغبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمة ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل". (١).

عن أبي موسى الأشعري ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». (٢) .

يقول ابن عثيمين - رحمه الله-: «وهذا من كرمه - عز وجل أنه يقبل التوبة حتى وإن تأخرت فإذا أذنب الإنسان ذنباً في النهار، فإن الله - تعالى - يقبل توبته ولو تاب في الليل. إذا أذنب وتاب في النهار فإن الله - تعالى - يقبل توبته بل إنه - تعالى - يبسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن.

١ - راجع: مدارج السالكين (١/ ٣٧٧).

٢ - أخرجه الطيالسي (٤٩٠)، وعبد بن حميد في "المنتخب" (٥٦٢)، ومسلم (٢٧٥٩)، وابن خزيمة

وفي هذا الحديث: دليل على محبة الله - سبحانه وتعالى - للتوبة، وقد سبق في الحديث السابق - في قصة الرجل الذي أضل راحلته حتى وجدها -: أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب إليه اشد فرحاً من هذا براحلته.

وفي هذا الحديث: أن الله - سبحانه وتعالى - يقبل توبة العبد وإن تأخرت، لكن المبادرة بالتوبة هي الواجب؛ لأن الإنسان لا يدري، فقد يفجأ الموت فيموت قبل أن يتوب. فالواجب المبادرة، لكن مع ذلك، لو تأخرت تاب الله على العبد.

وفي هذا الحديث: دليل على أن الشمس إذا طلعت من مغربها، انتهى قبول التوبة. وقد يسأل السائل، يقول: هل الشمس تطلع من مغربها؟ المعروف أن الشمس تطلع من المشرق؟!

فنقول: نعم هذا هو المعروف، وهذا هو المطرد منذ خلق الله الشمس إلي يومنا هذا. لكن في آخر الزمان يأمر الله الشمس أن ترجع من حيث جاءت فتنعكس الدورة، وتطلع من مغربها، فإذا رآها الناس آمنوا كلهم، حتى الكفار اليهود، والنصارى، والبوذيين، والشيوعيون، وغيرهم؛ كلهم يؤمنون. ولكن الذي لم يؤمن قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا ينفعه إيمانه.

كل يتوب أيضاً، لكن الذي لم يتب قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا تقبل توبته؛ لأن هذه آية يشهدها كل أحد، وإذا جاءت الآيات المنذرة لم تنفع التوبة ولم ينفع الإيمان! (١)

عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر". (٢)

«قال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم: هذه الأحاديث ظاهرة في الدلالة لها، وأنه لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته .

(وبهذا يُعلم أنه ليس من شرط التوبة عدم العود إلى الذنب، وإنما شرطه العزم الجازم الصادق على أن لا يعود، فإن تاب العبد من الذنب الذي هو عليه ثم لعب به الشيطان ونكص على عقبيه - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فلا ييأس من روح الله، وليجد في التوبة مرة أخرى فإن الله يقبله، فهو سبحانه واسع الفضل عظيم المغفرة" (٣)

المبحث الخامس: فضل التوبة وقبولها.

١ - «شرح رياض الصالحين لابن عثيمين» (١/ ١٠٤)

٢ - أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وأبو نعيم في "الحلية" ٥ / ١٩٠، والبيهقي في "الشعب" (٧٠٦٣) من طريق علي بن عياش، بهذا الإسناد.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه الحاكم ٤ / ٢٥٧، وأبو نعيم في "الحلية" ٥ / ١٩٠ من طريق عاصم بن علي، وابن

الجعد في "مسنده" (٣٥٢٩)، ومن طريقه ابن حبان (٦٢٨)،

٣ - «فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب» (٤ / ٣٢٩ بترقيم الشاملة آليا)

أخي المسلم: قبل أن نقف على موانع التوبة التي تحول بين المرء وبين توبته إلى ربه و مولاه لابد أن نقف على فضائل التوبة و الأوبة إلى الله تعالى فمن كشف له عن فجر الأجر هان عليه ثقل التكاليف فيدعوه ذلك إلى المسارعة إلى مرضاة الله تعالى و السعي الحثيث لينال محبته و تقواه

﴿طاعة لأمر ربك سبحانه وتعالى:﴾

فالتوبة عبد الله هي فريضة العمر التي يجب على العبد ألا يضيعها في أي وقت من الأوقات فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا [التحریم: ٨]} وأمر الله ينبغي أن يقابل بالامتثال والطاعة .

يقول السعدي – رحمه الله –: قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياءه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله. (١)

﴿سبب لفلاحك في الدنيا والآخرة:﴾

١ - تفسير السعدي - (١ / ٨٧٤)

قال تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:

٣١] فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يتلذذ، ولا يسر ولا يطمئن ؛ ولا يطيّب ؛

إلا بعبادة ربه والإنابة إليه والتوبة إليه .

يقول السعدي - رحمه الله - : ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى

بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله

تعالى بالتوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعو

إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل

إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهرا وباطنا، إلى: ما يحبه

ظاهرا وباطنا، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب

المؤمنين جميعا، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ

﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو

ذلك من المقاصد الفاسدة.(١)

🔖 **سبب لمحبة الله تعالى لك:**

و من فوائدها أيضا محبة الله تعالى فهو حبيب من تحبب إليه قال تعالى ﴿إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وهل هناك سعادة يمكن

أن يشعر بها إنسان بعد معرفته أن خالقه ومولاه يحبه إذا تاب إليه؟ !

🔖 **سبب لدخولك الجنة ونجاتك من النار:**

١ - تفسير السعدي - (١ / ٥٦٦)

و من فوائدها أيضا دخول الجنات و البعد عن نار جهنم قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]

وهل هناك مطلب للإنسان يسعى من أجله إلا الجنة؟ !

﴿بالتوبة تكفر السيئات﴾: فإذا تاب العبد توبة نصوحاً كفر الله بها جميع ذنوبه
وخطاياها.

قال- تعالى -: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]

يقول السعدي - رحمه الله: يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم
على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: { قُلْ } يا أيها الرسول ومن قام مقامه
من الدعاة لدين الله، مخبرا للعباد عن ربهم: { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ } باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام
الغيوب { لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى
التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا
سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب
عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا
أنه يغفر الذنوب جميعا من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك
من الذنوب الكبار والصغار. { إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } أي: وصفه المغفرة
والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية

في الوجود، مألوفة للموجود، تسح يده من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهر، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم^(١)

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحریم: ٨]

التوبة سبب للمتاع الحسن: قال الله - تعالى - : ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]

يقول الخازن - رحمه الله - { يمتعكم متاعاً حسناً } يعني إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير، قال بعضهم: المتاع الحسن هو الرضا باليسور والصبر على المقدور { إلى أجل مسمى } يعني يمتعكم متاعاً حسناً إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم .

فإن قلت قد ورد في الحديث { إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر }^(٢) وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله

١ - تفسير السعدي - (١ / ٧٢٧)

٢ - أخرجه أحمد ح ٨٢٧٢ و مسلم ح ٢٩٥٦

فيكف الجمع مبين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى .

قلت أما قوله ﷺ « الدنيا سجن المؤمن » فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو النسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله . (١)

🔖 **سبب لنزول البركات من السماء وزيادة القوة والإمداد بالأموال والبنين :**

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

ألا تستحق تلك الفضائل – وغيرها كثير – أن تتوب من أجلها؟ لماذا تبخل على نفسك بما فيه سعادتك؟ لماذا تظلم نفسك بمعصية الله وتحرمها من الفوز برضاه؟ جدير بك أن تبادر إلى ما هذا فضله وتلك ثمرته.

١ - تفسير الخازن - (٣ / ٤٣٥)

قدّم لنفسك توبة مرجوة قبل الممات وقبل حبس الألسن

بادر بها غُلق النفوس فإنها ذخرو غنم للمنيب المحسن

الفصل الثاني: موانع التوبة

المبحث الأول الموانع الداخلية (النفسية والفكرية):

- ١ . اليأس والقنوط من رحمة الله :الشعور بأن الذنوب عظيمة لا تُغفر .
- ٢ . التسويف وتأجيل التوبة » :سوف أتوب لاحقاً .»
- ٣ . الخوف من العودة إلى الذنب مرة أخرى :ترك التوبة خشية عدم الاستمرار .
- ٤ . الاستهانة بالمعاصي أو الاعتياد عليها حتى تصبح طبيعية .
- ٥ . البدع :صاحب البدعة يرى عمله حسناً فلا يتوب منه (حديث «إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة»).
- ٦ . الجهل بخطورة الذنوب أو بآثارها على القلب والدنيا والآخرة .
- ٧ . الإصرار على الذنب مع الاستغفار اللساني فقط (توبة الكذابين).

المبحث الأول الموانع الداخلية (النفسية والفكرية)

اعلم - زادك الله علماً - :أن أعظم ما يُبتلى به القلب الإنساني هو الحجاب الذي يحول بينه وبين العودة إلى خالقه، وليست كل موانع التوبة مادية خارجية، بل إن أشدها خطراً وأعظمها أثراً هي تلك الموانع الكامنة في أعماق النفس وخبايا الفكر؛ حيث يتلبس القلب بركام من الشبهات العقلية، والركونات النفسية التي تُزيّن الباطل وتُثبّط العزائم عن المبادرة بالاستغفار والرجوع.

وإن فهم هذه الموانع الداخلية النفسية والفكرية يُعد خطوة إستراتيجية أولى في طريق «سلسلة الموانع»؛ إذ لا يمكن علاج العلة قبل إدراك كنهها وتشخيص أسبابها. فبين تسويق الآمال الكاذبة، ويقن قنوطٍ من واسع الرحمة، وغرورٍ بالسلامة، وتأثرٍ بمفاهيم مغلوطة عن طبيعة الدين؛ تتقاذف أمواج الهوى بصاحبها وتبقيه أسيراً في قفص المعصية، ظاناً أنه في سعة والزمان ممتدّ له.

فما هي أبرز تلك الحواجز النفسية والفكرية التي تُغلق أبواب التوبة من داخل الذات؟ وكيف يتسنى للمربي والسالك كشفها وتفكيكها ليتحرر القلب من قيوده؟ هذا ما سنفصله في طيات هذا المبحث، مستلهمين هدي الوحي الحكيم وقواعد التزكية الإيمانية.

🔪أولا اليأس والقنوط من رحمة الله: الشعور بأن الذنوب عظيمة لا تُغفر

أخي السالك إلى الله: إن من أعظم أسلحة إبليس التي يستبسل بها في استنزاف قلوب العباد وإبقائهم في أسر المعصية: زراعة "اليأس" وبثّ "القنوط" من رحمة الله عز وجل. فإذا ارتكب الإنسان الذنب، واستعظمه، أو تكرر منه الوقوع فيه، أتاه الشيطان من قِبَل قنوطه، فصوّر له أن ذنوبه قد جاوزت الحد، وأنه قد طُرد من باب الرحمة، وأنه لا فائدة تترجى من توبته ولا رجوع له!

وهذا داءٌ عظيم ومفسدٌ خطير؛ لأنه يقلب صفة "الرجاء" إلى "قنوط"، ويُفقد العبد أعظم ركيزة في السير إلى الله، وهي حسن الظن بربه الواسع المغفرة. فالآيس من رحمة الله قد أغلق على نفسه باب النجاة بيده، وظنّ أن عفو الله أضيق من ذنوبه، وهو جهلٌ عظيم بسعة المغفرة الإلهية التي وسعت كل شيء.

فما هي حقيقة اليأس والقنوط وأثرهما المدمر على نفسية المذنب؟

قال المناوي: اليأس: القطع بأنّ الشَّيء لا يكون، وهو ضدّ الرّجاء (١). وقال العزّ: اليأس من رحمة الله: هو استصغار لسعة رحمته - عزّ وجلّ - ومغفرته، وذلك ذنب عظيم وتضييق لفضاء جوده (٢).

وقال الكفوي: اليأس: انقطاع الرّجاء (٣).

وقال الرّاغب هو انتفاء الطّمع (٤).

١ - التوقيف (٣٤٦).

٢ - شجرة المعارف والأحوال (١٢٠).

٣ - الكليات (٩٨٥).

٤ - المفردات (٥٥٢).

وقال ابن الجوزي: القطع على أن المطلوب لا يتحصّل لتحقيق فواته (١).

حكم اليأس:

عدّ ابن حجر اليأس من رحمته تعالى من الكبائر مستدلاً بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧) [يوسف: ٨٧]

وبعد أن ذكر عددا من الأحاديث المبشرة بسعة رحمته - عزّ وجلّ - قال: عدّ هذا كبيرة هو ما أطبقوا عليه، وهو ظاهر، لما فيه من الوعيد الشّدِيد (٢).

تعريف القنوط: هو استبعاد الفرج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم وينافيان كمال التّوحيد (٣).

قال المناوي: القنوط: هو اليأس من الرّحمة (٤).

وقال العزّ بن عبد السلام: القنوط استصغار لسعة رحمة الله - عزّ وجلّ - ومغفرته، وذلك ذنب عظيم وتضييق لفضاء جوده تعالى (٥).

حكم القنوط:

١ - نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٦٣٣).

٢ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١١ / ٥٧٢٥)

٣ - فتح المجيد (٣٥٩)

٤ - التوقيف على مهمات التعاريف (٢٧٦).

٥ - شجرة المعارف والأحوال - العز بن عبد السلام (١٢٠)

قال الإمام ابن حجر: سوء الظن بالله تعالى والقنوط من رحمته من الكبائر. مستدلاً بقوله تعالى (في القنوط) ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] وقال: عدّ سوء الظنّ والقنوط كبيرتين مغايرتين لليأس هو ما ذهب إليه الجلال البلقيني وغيره... والظاهر أنّ القنوط أبلغ من اليأس، للتّرقّي إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْوَسْ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩] وقد اتّفقوا على أنّ الشّخص الذي يئس من وقوع شيء من الرّحمة له مع إسلامه فاليأس في حقّه كبيرة اتّفاقاً، ثمّ هذا اليأس قد ينضمّ إليه حالة هي أشدّ منه، وهي التّصميم على عدم وقوع الرّحمة له وهو القنوط، ثمّ قد ينضمّ إلى ذلك أنّ الله يشدّد عقابه له كالكفّار وهذا هو المراد بسوء الظنّ هنا (١).

الفرق بين اليأس والقنوط والخيبة:

قال أبو هلال العسكري: الفرق بين اليأس والقنوط والخيبة: أنّ القنوط أشدّ مبالغة من اليأس، وأمّا الخيبة فلا تكون إلّا بعد الأمل. إذ هي امتناع نيل ما أمل، وأمّا اليأس فقد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده، والرّجاء واليأس نقيضان يتعاقبان تعاقب الخيبة والظفر (٢) ويستفاد ممّا ذكره ابن حجر: أنّ اليأس إلّا يأمل في وقوع شيء من الرّحمة وأنّ القنوط تصميم على عدم وقوعها (٣).

اليأس آفة الصبر الكبرى، لأنها تطفئ سراج الأمل، فيترك العبد العمل، ويخلد إلى الكسل.

١ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١١ / ٥٣٤٤)

٢ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١١ / ٥٧٢٥) الفروق اللغوية (٢٤٠)

٣ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١١ / ٥٧٢٥) الزواجر (١١٤) ، وقارن بالفقرة التالية.

﴿اليأس والقنوط: كبيرة من كبائر الذنوب، وصفة من صفات أهل الكفر والضلال؛ فلا ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين حادوا عن الطريق وضلوا عن السبيل، وتركوا الرجاء في الله، لعدم علمهم بربهم، ولجهلهم بكمال فضله وعظيم كرمه وإحسانه سبحانه...﴾

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾. [الحجر: ٥٦].

وقال عز وجل على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. [يوسف: ٨٧].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: "الكبائر؛ الإشرāk بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْحِ الله (١)".

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]. ويقول سبحانه: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾. ويقول عز وجل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

﴿مظاهر اليأس والقنوط:﴾

ومن أخطر مظاهر اليأس والقنوط: اليأس والقنوط من مغفرة الله ورحمته؛ حين يظن المرء أنه قد هلك وخاب وخسر، ويقطع على نفسه باب الرجاء، ويسدّ

^١ - أخرجه البخاري (٦٨٧٠)، والترمذي (٣٠٢١)، والدارمي ٢ / ١٩١، والطبري في "التفسير" (٩٢٢٢) [النساء: ٣١]

على نفسه باب الأمل في عفو الله والطمع في مغفرته ورحمته، فيترك العمل، ويخلد إلى الخمول والكسل، ويخوض مع الخائضين، ولا يسلك طريق التائبين... فلم يُغلق المرء على نفسه باب التوبة والرجاء؟

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

يقول ابن كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخباراً بأن الله - تبارك وتعالى - يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر...".

وقال تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال - ٣٨).

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]

قال أبو جعفر - رحمه الله - : يقول تعالى ذكره : أفلا يرجع هذان الفريقان الكافران القائل أحدهما : "إن الله هو المسيح ابن مريم" ، والآخر القائل : "إن الله ثالث ثلاثة" عما قالوا من ذلك ، ويتوبان مما قالوا ونطقا به من كفرهما ، ويسألان ربهما المغفرة مما قالوا "والله غفور" ، لذنوب التائبين من خلقه ، المنيين إلى طاعته بعد معصيتهم "رحيم" بهم، في قبوله توبتهم ومراجعتهم إلى

ما يحبّ مما يكره، فيصفح بذلك من فعلهم عما سلف من أجرامهم قبل ذلك.
(١)

وَلِمَ يُغْلَقُ المرءُ على نفسه باب الرجاء؟ والنبي ﷺ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ
الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ
اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً،
وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ
الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ
يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ". (٢)

ومن مظاهره اليأس والقنوط من زوال الشدائد وتفريج الكرب: فمن الناس من

إذا اشتدت عليه الكرب، وأحاطت به الهموم، وتوالت عليه المصائب،
فأصيب بمرض في بدنه، أو بإعاقة في جسده، أو بفقد لماله أو منصبه، أو بعقم
أو عقوق أو قطيعة... أصابه الجزع واليأس والقنوط، وغاب عنه الصبر والرضا،
وسدّ على نفسه باب الأمل والرجاء.

فَمَنْ الذي أنزل من السماء ماء بعدما قنط العباد من شدة القحط والجفاف؟

إنه الله؟

١ - «تفسير الطبري» (١٠ / ٤٨٤ ط التربية والتراث)

٢ - (البخاري (٦٤٦٩) ، ومسلم (٢٧٥٢) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾
[الشورى: ٢٨].

وَمَنْ الَّذِي كَشَفَ الضَّرَّ عَنْ أَيُّوبَ حِينَ نَادَاهُ؟ إِنَّهُ اللَّهُ. ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وَمَنْ الَّذِي رَزَقَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا بَغْلَامٍ بَعْدَمَا كَبُرَتْ سِنَةٌ وَاشْتَغَلَ رَأْسُهُ شَيْئًا؟ إِنَّهُ اللَّهُ. ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وَمَنْ الَّذِي نَجَّى نَبِيَّهٖ مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ بَعْدَمَا أَدْرَكَهُ فِرْعَوْنُ وَجَنَدُهُ؟ إِنَّهُ اللَّهُ. ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿ [الشعراء: ٦١ - ٦٦].

وَمَنْ الَّذِي نَجَّى نَبِيَّهٖ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَمَا أُلْقِيَ فِي نَارٍ مُشْتَعِلَةٍ؟ إِنَّهُ اللَّهُ. ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْآخَسِرِينَ ﴿ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

وَمَنْ الَّذِي نَجَّى نَبِيَّهٖ مُحَمَّدًا ﷺ بَعْدَمَا أَحَاطَ بِهِ الْأَعْدَاءُ وَهُوَ فِي غَارٍ ثَوْرٍ؟ إِنَّهُ
اللَّهُ. ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي
الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ
لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

فَمَهْمَا كَانَتْ هُمُومُكَ وَمَصَائِبُكَ، لَا تَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَلَا تَقْنَطُ مِنْ رَحْمَتِهِ،
فَفَضَّلَ اللَّهُ عَظِيمَ، وَكَرَّمَهُ جَزِيلَ، وَعَطَاؤُهُ عَمِيمَ، وَرَحْمَتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ..
وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يزال يُستجاب للعبد ما
لم يدعُ بإثم أو قطيعة رَحِمَ، ما لم يستعجل». (١)

قيل يا رسول الله؛ ما الاستعجال؟

قال: «يقول: قد دَعَوْتُ وقد دَعَوْتُ فلم أَرِ يَسْتَجِبْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ
وَيَدْعُ الدُّعَاءَ». (١)

❖ **اليأس والقنوط من توبة العُصاة؛** فإذا رأيت كثرة العُصاة، وانتشار المنكرات،
فلا تيأس ولا تقطع باب الرجاء، بل قم بدورك في بذل النصيحة والدعوة إلى

١ - أخرجه مسلم [٢٧٣٥]،

٢ - أخرجه مسلم في الصحيح (كتاب الذكر، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي، ٤/ ٢٠٩٥،

ح: ٩٢ - ٢٧٣٥)

الخير بالموعظة الحسنة، وكن قدوة حسنة في أقوالك وأفعالك وأخلاقك.. فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

وإياك أن تحكم على الناس بالهلاك والخسران نتيجة عصيانهم وغفلتهم، فهذا تأل على الله وتطاؤل على حق من حقوقه... فالأمر أمره، والمُلك مُلكه، والهداية بيده سبحانه، وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين...

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ" (١) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ لَا أَدْرِي أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصَبِ؛ أَوْ أَهْلَكَهُمْ بِالرَّفْعِ..

وعن جندب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ حدث: «أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان. وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟»

فإني قد غفرت لفلان، وأحببتُ عملك». أخرجه مسلم. (٢)

أضرار اليأس والقنوط

اليأس والقنوط من صفات الكافر:

قال تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٥ - ٥٦].

١ - "الموطأ" ٢ / ٩٨٤، ومن طريق مالك أخرجه مسلم (٢٦٢٣) (٣٩)

٢ - "مسند أحمد" (١٤ / ٤٨ ط الرسالة) «أخرجه مسلم (٢٦٢١)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٦٦٨٨)»

وقال تعالى: **{إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}** [يوسف: ٨٧].

قال السعدي: (يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط) (١).

قال ابن عطية: (اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين) (٢).

❖ اليأس والقنوط ليس من صفات المؤمنين:

قال البغوي: (إذا هم يقنطون، ييأسون من رحمة الله، وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر الله عند النعمة ويرجو ربه عند الشدة) (٣).

قال القاسمي: (الجزع واليأس من الفرج عند مسّ شر قضى عليه. وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان) (٤) (٤).

❖ اليأس والقنوط فيه تكذيب لله ولرسوله ﷺ:

قال ابن عطية: (اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين. إذ فيه إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تعالى) (٥).

قال القرطبي: (اليأس من رحمة الله، .. فيه تكذيب القرآن، إذ يقول وقوله الحق: **{وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}** [الأعراف: ١٥٦] وهو يقول: لا يغفر له، فقد حجر واسعا. هذا إذا كان معتقدا لذلك، ولذلك قال الله تعالى: **{إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ}**

١ - (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للسعدي (١/ ٣٧٨).

٢ - (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لابن عطية (٣/ ٢٧٤).

٣ - (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، للبغوي (٣/ ٥٧٩)، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، لابن عطية (٤/ ٣٣٨).

٤ - (محاسن التأويل)، للقاسمي (٦/ ٤٩٩).

٥ - (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، لابن عطية (٣/ ٢٧٤).

مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، وبعده القنوط، قال الله تعالى:
{وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦] (١) .

❖ **اليأس فيه سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى:**

قال سيد العفاني: (الخوف الموقع في الإيأس: إساءة أدب على رحمة الله التي سبقت غضبه وجهل بها) (٢) .

❖ **سبب في الوقوع في الكفر والهلاك والضلال:**

قال القاسمي: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال.

وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى. بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مسّ شر قضى عليه) (٣) .

قال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] (الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى) (٤) .

❖ **الفتور والكسل عن فعل الطاعات والغفلة عن ذكر الله:**

قال ابن حجر الهيتمي: (القنوط آيس من نفع الأعمال ومن لازم ذلك تركها) (٥) .

١ - ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي يتصرف يسير (٥ / ١٦٠) .

٢ - ((صلاح الأمة في علو الهمة)) لسيد العفاني (٥ / ٦٧٣) .

٣ - ((محاسن التأويل)) للقاسمي (٦ / ٤٩٩) .

٤ - ((معالم التنزيل في تفسير القرآن)) للبغوي (١ / ٢١٧) .

٥ - ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) لابن حجر الهيتمي (١ / ١٢٢) .

❖ الاستمرار في الذنوب والمعاصي:

قال أبو قلابة: (الرجل يصيب الذنب فيقول: قد هلكت ليس لي توبة فييأس من رحمة الله، وينهمك في المعاصي، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، قال الله تعالى: {إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]) (١) .

❖ سبب في الحرمان من رحمة الله ومغفرته:

قال المباركفوري: (إن اعتقد أو ظن -الإنسان- أن الله لا يقبلها -أعماله- وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله وهو من الكبائر ومن مات على ذلك وكل إلى ما ظن كما في بعض طرق حديث-: ((أنا عند ظن عبدي بي - فيظن بي عبدي ما شاء))) (٢) .

❖ سبب لفساد القلب:

قال ابن القيم وهو يعدد الكبائر: (الكبائر: .. القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله .. ، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها، وإلا فهو قلب فاسد، وإذا فسد القلب فسد البدن) (٣) .

❖ ذهاب سكينة القلب والشعور الدائم بالحرمان والحزن والهم:

١ - (معالم التنزيل في تفسير القرآن) للبغوي (١/ ٢١٧).

٢ - رواه الطبراني في (الكبير) (٢٢/ ٨٨).

٣ - (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) لابن قيم الجوزية (١/ ١٣٣).

قال عبد الله الجربوع: (اليأس من روح الله والقنوط من رحمته؛ يؤدي إلى ترك العمل، إذ لا فائدة منه بزعمه، وهذه طامة من الطوام وكبيرة من كبائر الذنوب، تُخرج القلب عن سكينته وأنسه إلى انزعاجه وقلقه وهمه) (١) .

قال الشوكاني: (إذا مسه-الإنسان - الشر من مرض أو فقر كان يؤسا شديد اليأس من رحمة الله وإن فاز بالمطلوب الدنيوي، وظفر بالمقصود نسي المعبود، وإن فاته شيء من ذلك استولى عليه الأسف، وغلب عليه القنوط، وكلتا الخصلتين قبيحة مذمومة) (٢) .

ثانيا: التسويف وتأجيل التوب

التسويف: وهو داء عضال ومرض قتال، إذ أن (سوِّف) جند من جنود إبليس وقد قيل: إن عامة دعاء أهل النار: يا أف للتسويف وكم من الناس من سوِّف وسوِّف فانقضى أجله ولم يدرك شيئا من أمانيه الدنيوية ولم يحصل شيئا لحياته الآخروية.

ومن أخطر حيل إبليس التي يحتال بها على الناس التسويف في التوبة، فيوسوس للعاصي بأن يتمهل في التوبة، فإن أمامه زمنا طويلا، ولو تاب الآن ثم رجع لا يمكن أن تقبل توبته بعد ذلك، فيكون من أصحاب النار، أو يوسوس له بأنه إذا بلغ الخمسين أو الستين مثلاً عليه أن يتوب توبة نصوحاً، ويلزم المسجد

١ - (أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة) لعبد الله الجربوع (٢/ ٤٨٠) بتصرف يسير.

٢ - «فتح القدير للشوكاني» (٣/ ٣٠١)

ويكثر القربات، أما الآن فإنه في شبابه وزهرة عمره فليمتع نفسه ولا يشق عليها بالتزام الطاعات من الآن.

هذه بعض مكائد إبليس في التسويف في التوبة.

قال بعض السلف الصالح: أنذركم سوف، فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل المؤمن الحازم الذي يتوب إلى الله من كل ذنب وفي كل وقت خوفاً من سوء الخاتمة ومحبة لله، والمفرط المسوف الذي يؤخر توبته، كمثل قوم في سفر دخلوا قرية، فاما الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل، أما المفرط فإنه يقول كل يوم: سأهب غداً، حتى أعلن أمير القافلة الرحيل ولا زاد معه، وهذا مثل للناس في الدنيا، فإن المؤمن الحازم متى ما جاء الموت لم يندم، أما العاصي المفرط فإنه يقول ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:

٩٩-١٠٠] إلى كم تماطلون بالعمل، وتطمعون في بلوغ الأمل، وتغتترون بفسحة المهل، ولا تذكرن هجوم الأجل؟

ما ولدتم فللتراب، وما بنيتم للخراب، وما جمعتم فللذهاب، وما عملتم ففي كتاب مدّخر ليوم الحساب.

• يا أخي كم من يوم قطعته بالتسويف؟

فيه التكليف، وكم من أذنٍ لا يردعها التخويف؟.

أما اعتبرت بمن رحل أما وعظمتك العبر أما كان لك سمعٌ ولا بصر.

• يا بطل، إلى كم تؤخر التوبة وما أنت في التأخير بمعذور؟

إلى متى يقال عنك: مفتون ومغرور؟

يا مسكين، قد انقضت أشهر الخير وأنت تعد الشهور؟ أترى مقبول أنت أم

مطروء؟ أترى مواصل أنت أم مهجور؟

أترى تركب النجب غداً أم أنت على وجهك مجرور؟

أترى من أهل الجحيم أنت أم من أرباب النعيم والقصور. فاز والله المخفون،

وخسر هنالك المبطلون، ألا إلى الله تصير الأمور.

• يا من سوف بالمتاب حتى شاب، يا من ضيّع في الغفلة أيام الشباب، يا مطروءاً

بذنوبه عن الباب، إذا كنت في الشباب غافلاً، في المشيب مسوّفاً، متى تقف

بالباب؟ كم عوملت على الوفاء؟

ما هكذا فعل الأحباب، الظاهر منك عامر، والباطن ويحك، خراب، كم

عصيان كم مخالفة، كم رياء، كم حجاب؟

ولّى طيب العمر في الخطايا، يا ترى تعود إلى الصواب؟.

ما بعد الشيب لهو، كيف يجمل بالشيخ التصاب؟ أنت لو قدمت في متقدم
عمر ك الطاعة، لخفف عنك الحساب. كيف والعمر ولى في الغفلة وفي طلب
الأسباب؟ إذا أنذرك المشيب بالرحلة، ولم تقدّم الزاد ماذا يكون الجواب.
• ولله در من قال:

ولو أننا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حيّ

ولكنّا إذا متنا بعثنا ونُسأل بعدها عن كل شيء

ثالثا: طول الأمل

اعلم -علمني الله و إياك-: أن من أسباب وموانع التوبة طول الأمل و هو أن
يؤمل العبد طول البقاء و يتمادى في المعصية و الإباء فإذا قيل له تب إلى الله
يقول: العمر طويل و دعنا نتمتع بالحياة ثم في الأيام الأخيرة من العمر سوف
أتوب!

مالي أراك على الذنوب مواظبا أخذت من سوء الحساب أمان

وقال آخر:

أؤمل أن أحيا وفي كل ساعة تمر بي الموتى تهز نعوشها

وهل أنا إلا مثلهم غير أن لي بقايا ليال في الزمان أعيشها

قال بعض السلف: من طال أمله، ساء عمله، وذلك أن طول الأمل، يحمل الإنسان على الحرص على الدنيا، والتشمير لها، لعمارتها، وطلبها حتى يقطع وقته، ليله ونهاره، في التفكير في جمعها وإصلاحها، والسعي لها مرة بقلبه، ومرة بالعمل، فيصير قلبه وجسمه، مستغرقين في طلبها. وحينئذ ينسى نفسه والسعي لها، بما يعود عليها بالصلاح، وكان ينبغي له المبادرة والاجتهاد، والتشمير في طلب الآخرة، التي هي دار الإقامة والبقاء، وأما الدنيا فهي دار الزوال والانتقال.

أُتْبِنِي بِنَاءَ الْخَالِدِينَ وَإِنَّمَا مَقَامُكَ فِيهَا لَوْ عَرَفْتَ قَلِيلًا

لَقَدْ كَانَ فِي ظِلِّ الْأَرَاكِ كَفَايَةً لِمَنْ كَانَ يَوْمًا يَقْتَفِيهِ رَحِيلٌ

ذكر العلماء أن طول الأمل له سببان:

أحدهما الجهل، والآخر حب الدنيا.

أما حب الدنيا:

فهو أنه إذا أنس بها، وبشهواتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من التفكير في الموت، وصار مشغولاً بالأمانى الباطلة، التي توافق مراده، وإذا جاء خاطر الموت في بعض الأحوال واستعد وتهاً، سوف ووعد نفسه وقال: ما مضى إلا القليل، إلى أن تكبر، ثم تتوب، وتقبل على الطاعة، فلا يزال يمني ويسوف من الشباب إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، أو إلى رجوع من سفر، أو إلى فراغ من تدبير بعض شئونه، فلا يزال يمني نفسه بما يوافق هواها، ولا يزال

يغالط نفسه في الحقائق، ويتوهم البقاء في الدنيا، إلى أن يتقرر ذلك عنده،
ويظن أن الحياة قد صفت له، وينسى قول الله عز وجل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
[يونس: ٢٤] .

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسوقها طلب المحال فتطمع

﴿وَأما السبب الثاني: فهو الجهل، حيث يستبعد الموت مع الصحة والشباب،
فالإنسان قد ألف موت غيره، ولم ير موت نفسه أصلاً فلذلك يستبعد، إلا أن
العقل يعرف أن الأجل محدود، فقد فرغ منه، والإنسان يسير إليه كل لحظة كما
قيل:

نسير إلى الآجال في كل لحظة وأيامنا تطوى وهنّ مراحل

ولهذا، فإن من المداخل للشيطان، إلى قلب ابن آدم، والتي إذا لم ينتبه لها
الإنسان أهلكته، طول الأمل، فإن الشيطان لا يزال بالإنسان، في اتباع الهوى،
والنفس الأمارة بالسوء، حتى يوقعه في سوء الخاتمة، نسأل الله السلامة
والعافية، وبذلك يكون الشيطان قد حقق مراده

ألا أيها اللاهي وقد شاب رأسه أَلَمْ يَزَعْكَ الشيب والشيب وازع

أَتَصْبُو وقد ناهزت خمسين حجة كأنك غرّ أو كأنك يافع

حذار من الأيام لا تأمننّها فتخدعك الأيام وهي خوادع
أؤمن خيلا لا تزال مغيرة لها في كل يوم في أناس وقائع
وتأمل طول العمر عند نفاده وبالرأس وسم للمنية لامع
ترحل من الدنيا بزاد من التقى فإنك مجزي بما أنت صانع

رابعاً: الاستهانة بالمعاصي أو الاعتياد عليها حتى تصبح طبيعية

أخي المسلم : اعلم -بارك الله فيك -: أن الاستهانة بالمعصية واعتيادها يُعدّان
من أعظم الحجب بين العبد والتوبة، لأن القلب إذا ألف الذنب زال منه
استعظام حرّات الله، فتتحول المعصية في عين صاحبها من بلية تستوجب
الاستغفار إلى أمر عادي لا يثير القلق.

آليات تأثير اعتياد الذنب على التحرك ونية التوبة

❖ موت الحياء وغياب الوازع: الاستمرار على الذنب يطفئ حرارة الخوف في
القلب، فيستسهل الفاعل المعصية ولا يستشعر قبحها.

❖ رين القلوب: كثرة الذنوب غير المتبوعة باستغفار تُحدث طبقة على القلب
تمحو قدرته على التمييز بين الحق والباطل والتأثر بالموادع.

❖ التسويف المستمر: اعتياد الذنب يُوهم الإنسان بطول الأمل وأن التوبة ممكنة
في أي وقت، فيستمر في الإرجاء حتى يفجأه الأجل.

﴿صغائر الذنوب تصبح كبائر: الاستهانة بالصغيرة والتمادي عليها يخرجها من كونها سقطة عارضة إلى إصرار دائم.﴾

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ يَعْنِي ابْنَ قُرْصٍ اللَّيْثِيُّ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ الْيَوْمَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - مِنْ الْمُؤَبَّاتِ»^(١)

ذكره الإمام البخاري تحت باب (ما يتقى من المحرمات):

التعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بُعُودٍ وَجَاءَ ذَا بُعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْصَجُوا بِهِ خُبَزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذَ بِهَا صَاحِبُهَا تَهْلِكُ»^(٢) أخرجه أحمد بسند حسن ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث بن مسعود وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة، أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - "كَانَ يَقُولُ: « يَا عَائِشَةُ، إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ طَالِبًا »»^(٣)

قال بن بطل: المحقرات إذا كثرت صارت كبارا مع الإصرار وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها

^(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٢) ، وأبو يعلي (٤٢٠٧) و (٤٣١٤)

^(٢) أخرجه أحمد (٣٣١/٥) ، رقم (٢٢٨٦٠) ، والطبراني (١٦٥/٦) ، رقم (٥٨٧٢) ، والرويانى (٢١٦/٢) ، رقم (١٠٦٥)

^(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣) ، والدارمي (٢٧٢٦) ، والطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٤٠٠٦) و (٤٠٠٧) ، وابن حبان (٥٥٦٨)

وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً.^(١)

قَالَ: الْأَوْزَاعِيُّ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: «لَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِ الْخَطِيئَةِ، وَلَكِنْ انْظُرْ مَنْ عَصَيْتَ»^(٢)

و قال فضيل بن عياض - رحمه الله - : بقدر ما يصغر عند يعظم عند الله و بقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله .

وهو هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من تربى في مدرسة الإيمان و نهل من فيض القرآن ، يصور لنا صورة المسلم الخائف من ربه الراجي ثوابه ، وصورة ذلك العبد الذي لا يبالي بما يصنعه و لا يقول:

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - عَنِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا. قَالَ أَبُو شَهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ»^(٣)

قال الحافظ بن حجر - رحمه الله - : قال ابن أبي جمرة السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة وحاصله أن

^(١) فتح الباري لابن حجر (١١ / ٣٣٠)

^(٢) «ستة مجالس لأبي يعلى الفراء» (ص ٨١)

^(٣) أخرجه البخاري [٥٩٤٩] ، ومسلم [٢٧٤٤] ، والترمذي [٢٤٩٧] ، [٢٤٩٨]

المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها
وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى
من صغير عمله السيء

قال المحب الطبري-رحمه الله-: إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من
الله ومن عقوبته لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة والفاجر
قليل المعرفة بالله فلذلك قل خوفه واستهان بالمعصية

وقال بن أبي جمرة-رحمه الله-: السبب في ذلك أن قلب الفاجر مظلم فوقع
الذنب خفيف عنده ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وعظ يقول هذا سهل.
والحكمة في تشبيه ذنوب الفاجر بالذباب كون الذباب أخف الطير وأحقره
وهو مما يعاين ويدفع بأقل الأشياء

وقال بن بطلال-رحمه الله-: يؤخذ منه أنه ينبغي أن يكون المؤمن عظيم الخوف
من الله تعالى من كل ذنب صغيرا كان أو كبيرا لأن الله تعالى قد يعذب على
القليل فإنه لا يسأل عما يفعل سبحانه وتعالى^(١)

فإن من الأعمال أعمالاً يراها الشخص في عينه صغيرة وهي عند الله سبحانه
وتعالى من الكبائر.

^(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥) وما بعدها

أخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(١)

وعند مسلم «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ». ^(٢)

وقال الله سبحانه وتعالى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: ١٥].

فهناك أمور تحسبها هينة في نظرك، ولكنها في نظر الله سبحانه وتعالى عظيمة وكبيرة من الكبائر، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» ^(٣).

فكيف قال عليه الصلاة والسلام: (وما يعذبان في كبير) - ثم قال -: (بلى إنه كبير)، ثم فصل فقال: (أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله - أو لا يستنزه من بوله كما في الرواية الأخرى - وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة)؟ يقول فريق من الشراح في قوله عليه الصلاة والسلام: (وما يعذبان في كبير) أي:

^(١) رواه البخاري ١١ / ٢٦٦ في الرقاق، باب حفظ اللسان، ومسلم رقم (٢٩٨٨) في الزهد، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار

^(٢) مسلم ٤ / ٢٢٩٠ (٢٩٨٨)

^٣ - أخرجه البخاري (٢١٨) وأحمد (١٩٨٠) ومسلم (٢٩٢).

وما يعذبان في شيء كبير في أنظاركم، ولكنه كبير عند الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر السبب وهو عدم الاستبراء من البول، والسعي بين الناس بالنميمة.

وقد يرى الشخص أشياء يراها في نظره يسيرة، ولكنها تسجل عليه كبيرة، وتسود بها صحائفه يوم القيامة - والعياذ بالله - ولا يخفى عليكم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها لما قالت أمام رسول الله ﷺ: (يا رسول الله! حسبك من صفة كذا - تريد أنها قصيرة - قال لها النبي ﷺ: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته).

خامسا: البدعة

أخي الحبيب: تُعد البدعة من أشد الموانع التي تحجب التوبة عن صاحبها، بل إن خطرها أشد من خطر المعصية المجردة؛ لأن العاصي يعلم أنه يرتكب خطيئة فيرجى له أن يندم ويستغفر، بينما المبتدع يتقرب إلى الله ببدعته ويرأها طاعة، فلا يخطر بباله أن يتوب منها.

أسباب حجب التوبة عن صاحب البدعة:

اعتقاد الصلاح والتقرب: المبتدع يظن أن عمله مما يُرضي الله، والجاهل بذنبه لا يطلب الإقلاع عنه ولا الاستغفار منه.

إغلاق باب الندم: الشرط الأساسي للتوبة هو الندم، والمبتدع يستبشر بعمله ويُسرّ به، فكيف يندم على ما يراه قربة؟

الكبر والتعصب للرأي: غالباً ما يقترب الابتداع بالتعصب للرأي والهوى، فيتكبر المبتدع عن قبول الحق ورؤية خطئه حتى وإن ظهرت له النصوص.

زيادة الإصرار بالجدال: الانشغال بالدفاع عن البدعة وتأويل النصوص ينقل صاحبها من مجرد العمل إلى نشر الشبهة والدعوة إليها.

لا شك أن البدعة أخطر من المعاصي؛ فإن المعاصي إذا اجتمعت على الإنسان، وأصرّ عليها أهلكته، والبدعة أشدّ إهلاكاً من المعاصي، كما قال سفيان الثوري رحمه الله: ((البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها))^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((ومعنى قولهم: إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله قد زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً؛ لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيئ ليتوب منه، وبأنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب،.

أو استحباب؛ ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً، وهو سيئ في نفس الأمر؛ فإنه لا يتوب))^(٢)، ثم قال: ((ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله، ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى - سبحانه وتعالى - من هدى من الكفار والمنافقين، وطوائف أهل البدع والضلال))^(٣)، وقال رحمه الله: ((ومن قال:

^١ - شرح السنة، للبغوي، ١/ ٢١٦.

^٢ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٠/ ٩.

^٣ - المرجع السابق، ١٠/ ٩ - ١٠.

إنه لا يقبل توبة مبتدع مطلقاً فقد غلط غلطاً منكراً)) (١)، فقد فسّر شيخ الإسلام حديث حجب التوبة عن صاحب البدعة بكلامه هذا تفسيراً واضحاً ولله الحمد، فعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة)) (٢) .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لا تجالس أهل الأهواء، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب. (٣)

وعن أيوب السخيتاني رحمه الله قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهداً، إلا زاد من الله - عز وجل - بُعداً. (٤)

وعن جابر. قال: قال لي محمد بن علي رحمه الله: يا جابر بلغني أن قومًا بالعراق، يزعمون أنهم يحبوننا، وينالون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويزعمون أنني أمرتهم بذلك، فأبلغهم إني إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده لو وليت لتقربت إلى الله تعالى بدمائهم، لا نالني شفاعة محمد إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عنهما. (٥)

١ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١١ / ٦٨٥.

٢ - أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ٨ / ٦٢، برقم ٤٧١٣ [مجمع البحرين في زوائد المعجمين. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ((ورجاله رجال الصحيح، غير هارون بن موسى الفروي وهو ثقة))، ١٠ / ١٨٩، وصح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤ / ١٥٤، برقم ١٦٢٠، وذكر طرقه الأخرى

٣ - [الشرعية / ٧٠].

٤ - [صفة الصفوة / ٣ / ٢١١].

٥ - [الحلية (تهذيبه) / ١ / ٥٠٨].

🔖 وعن يحيى بن أبي كثير رحمه الله قال: إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره. (١)

🔖 وعن أبي قلابة رحمه الله أنه كان يقول: إن أهل الأهواء أهل الضلالة، ولا أرى مصيرهم إلا إلى النار. (٢)

🔖 وعن الحسن البصري رحمه الله قال: صاحب البدعة لا تقبل له صلاة، ولا صيام، ولا حج، ولا عمرة، ولا جهاد، ولا صرف، ولا عدل. (٣)

🔖 وقال أحمد بن سنان القطان رحمه الله: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو ييغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه. (٤)

🔖 وقال سفيان الثوري رحمه الله: مَنْ أَصْغَى بِإِذْنِهِ إِلَى صَاحِبِ بَدْعَةٍ: خَرَجَ مِنْ عَصْمَةِ اللَّهِ، وَوُكِّلَ إِلَيْهَا - يعني: على البدع - . (٥)

سادسا: الجهل بخطورة الذنوب أو بآثارها على القلب والدنيا والآخرة.

الجهل بخطورة الذنوب وبشاعة آثارها العاجلة والآجلة يُعدّ من أعتى الحجب التي تحول بين العبد وبين التوبة النصوح؛ لأن الإرادة والتحرك نحو التوبة

١ - [الشریعة / ٧٢].

٢ - [الشریعة / ٧٢].

٣ - [الشریعة / ٧٢].

٤ - [عقيدة السلف وأصحاب الحديث / ٢٩٨، ٢٩٩].

٥ - [شرح السنّة ١٢٦ - ١٢٩].

يتبعان العلم بالضرر، فمن يجهل حقيقة السمّ يوشك أن يتجرعه دون ترائع أو حذر.

❖ كيف يعوق الجهلّ سلوك طريق التوبة؟

❖ انعدام الباعث على الندم: الندم ركن التوبة الأعظم، وهو ناتج عن روعة الشعور بعظمة المخالفة.

فإذا جهل العبد أثر الذنب في الدنيا والآخرة، لم يجد في قلبه ألمًا ولا حسرة يستحثانه على الاعتذار والإنابة.

❖ الأمن من مكر الله وطول الأمل: الجهل بالسُنن الإلهية في الاستدراج والعقوبة يجعل الجاهل يغترّ بحلم الله وستره، فيظن أن تأخير العقوبة دليل على الرضا، فيستمر في الغي.

❖ الغفلة عن آثار الذنب على القلب: الجهل بطبيعة الرين والنكتة السوداء التي تطبع على القلب مع كل ذنب يُفقد الإنسان القدرة على إدراك مرضه الروحي، فيظل القاسي يظن أنه صحيح سليم.

❖ استصغار الجريمة: الجهل بعظمة من يُعصى ينزل بالذنب العظيم إلى مرتبة التافه العابر، فلا يتحرك العبد لغسله بالاستغفار.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار به جهلا"

إن الجهل والانغماس في وحل الجهالة والجاهلية أعظم سبب وطريق إلى معصية الله، ولهذا كثيرًا ما يذكر الجهل في القرآن ويكون المراد هو نوع من المعاصي.

لذا قال قتادة رحمه الله: "أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل ما عصي الله به فهو جهالة"، وقال غيره: "كل من عصى الله فهو جاهل".

إما بعدم العلم بالحق النافع وإما بعدم العمل بمقتضى ذلك العلم، ولهذا جاء وصفهم في القرآن أنهم ﴿يَعْمَلُونَ الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧]. أي جهل بمقام الله وقدره، أو جهل بنظر الله ومراقبته، أو جهل بعاقبة المعاصي وإيجابها لسخط الله، فهو جهل يقود إلى العصيان. ومن أمثلة ذلك: ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام حين أمرهم بأمر الله في ذبح البقرة فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧].

فكان رد موسى عليه السلام عليهم أن قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

ولم يقل أعوذ بالله أن أكون من المستهزئين أو الساخرين.

كذلك الفواحش والمعاصي جميعها هي ضروب وأنواع من الجهل.

فهذا نبي الله يوسف عليه السلام حين دعت امرأة العزيز ومن معها من النسوة إلى الفاحشة فرد عليهن داعيا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسح ظاهره وباطنه؟

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟ وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟ وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟ وما الذي أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظلل، فلمّا صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟ وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟ وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً؟

سابعاً: الإصرار على الذنب مع الاستغفار اللساني فقط (توبة الكذابين).

أخي القارئ الكريم: إن من موانع التوبة أن يتوب العبد توبة لسانية أي لا تتجاوز اللسان غير خارقة من القلب فهي توبة كاذبة يتوب بلسانه وقلبه مصر على عصيان فذلك عبد محروم من لذة التوبة ولا يفيق إلا في معسكر الأموات

قد يقول الإنسان بلسانه: «أستغفر الله وأتوب إليه»، ثم يظل مقيمًا على المعصية، مستمرًا فيها، عازمًا على العودة إليها، فهذا الاستغفار لا يوافق حقيقة التوبة؛ لأن اللسان يقول شيئًا، والعمل والقلب يقولان شيئًا آخر.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فمن علامات التائبين أنهم لا يصرون على الذنب، بل إذا زلّوا بادروا بالرجوع والاستغفار والإقلاع.

لماذا يكون هذا مانعًا من التوبة؟

لأنه يحوّل الاستغفار إلى عادة لسانية لا يصاحبها ندم ولا إقلاع.

لأنه يكشف ضعف تعظيم الله في القلب؛ فالمصّر يعلم أن الفعل معصية ثم يستمر فيه.

لأنه يؤخر التوبة الحقيقية؛ فيظن الإنسان أنه تاب لمجرد قوله «أستغفر الله».

لأنه قد يورث قسوة القلب؛ فالإصرار على المعصية مع تكرارها يجعل الرجوع إلى الله أثقل على النفس.

لأنه يوقع الإنسان في خداع النفس؛ فيجمع بين فعل الذنب والاطمئنان إلى الاستغفار دون تغيير حقيقي.

قال مالك بن دينار- رحمه الله-: دخلت على جار لي وهو في الغمرات يعاني
عظيم السكرات، يغمى عليه مرة، ويفيق أخرى، وفي قلبه لهيب الزفرات، وكان
منهمكًا في دنياه، متخلفًا عن طاعة مولاه، فقلت له: يا أخي، تب إلى الله،
وارجع عن غيِّك، عسى المولى أن يشفيك من ألمك، ويعافيك من مرضك
وسقمك، ويتجاوز بكرمه عن ذنبك. فقال: هيهات هيهات! قد دنا ما هو آت،
وأنا ميّت لا محالة، فيا أسفي على عمر أفنيته في البطالة. أردت أن أتوب مما
جنيت، فسمعت هاتفًا يهتف من زاوية البيت: عاهدناك مرارًا فوجدناك غدارًا.

قال مالك بن دينار: دخلت على جار لي وهو في الغمرات يعاني عظيم
السكرات، يغمى عليه مرة، ويفيق أخرى، وفي قلبه لهيب الزفرات، وكان
منهمكًا في دنياه، متخلفًا عن طاعة مولاه، فقلت له: يا أخي، تب إلى الله،
وارجع عن غيِّك، عسى المولى أن يشفيك من ألمك، ويعافيك من مرضك
وسقمك، ويتجاوز بكرمه عن ذنبك. فقال: هيهات هيهات! قد دنا ما هو آت،
وأنا ميّت لا محالة، فيا أسفي على عمر أفنيته في البطالة. أردت أن أتوب مما
جنيت، فسمعت هاتفًا يهتف من زاوية البيت: عاهدناك مرارًا فوجدناك غدارًا.

(١)

يا أخي أقبل على قبلة التوجه إلى مولاك، وأعرض عن مواصلة غيِّك وهواك
وواصل بقية العمر بوظائف الطاعات، واصبر على ترك عاجل الشهوات،

فالفرار أيها المكلف كل الفرار من مواصلة الجرائم والأوزار، فالصبر على الطاعة في الدنيا أيسر من الصبر على النار.

🔪 الفرق بين الاستغفار الصادق والاستغفار باللسان

الاستغفار الصادق هو الذي يصاحبه:

١. الإقلاع عن الذنب .
٢. الندم على الوقوع فيه .
٣. العزم الصادق على عدم العودة إليه .
٤. رد الحقوق إلى أهلها إن كان الذنب متعلقاً بحقوق العباد.

ثامنا: المانع الغفلة

الغفلة هي نوم القلب وتخدر الشعور بمرور الأيام وانقضاء العمر، وهي من أعظم الموانع والدواعي التي تحول بين العبد وبين التوبة والإنابة إلى الله تعالى.

تتجلى خطورة الغفلة وأثرها المباشر في حجب التوبة من خلال المحاور

التالية:

أولاً: موت الحساسية الذنبية والتسويق:

🔪 فقدان الشعور بالذنب: الغافل يستمرئ المعصية حتى تصفو لديه وتصبح عادة، فلا يجد في نفسه الدافع الخفي (الندم) الذي هو ركن التوبة الأساسي.

✍ طول الأمل: توهم بقاء العمر يدفعه إلى قول "سأتوب غدًا"، ولا يزال يرحل التوبة حتى يباغته الأجل وهو على حاله.

ثانيًا: قسوة القلب ورين الخطيئة:

✍ تراكم الران: كلما أذنب العبد ذنبًا ولم يتب منه لغفلته، نُكِّتت في قلبه نقطة سوداء، حتى يعلو الران قلبه، قال تعالى: {كَأَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

✍ عمى البصيرة: يصبح القلب الغافل غير قادر على تمييز القبيح من الحسن، فيرى الذنب صغيرًا أو لا يراه شيئًا على الإطلاق، مما يحجب عنه الاستغفار.

ثالثًا: الحرمان من توفيق الله:

✍ الإعراض يوجب الإعراض: التوبة هداية وتوفيق من الله، والعبد إذا استغرق في غفلته وأعرض عن ذكر الله، يُحرَم من التوفيق لإصلاح نسيج حياته والرجوع إلى مولاه.

✍ الوقوع في شباك الإملاء: قد يستدرج الله العبد الغافل بالنعم مع إصراره على المعصية، فيظن أنه على خير، وتلك هي الفتنة الكبرى.

فاذا استولى حب الدنيا على قلب المرء أنساه ذكر ربه؛ وإذا نسي المرء ذكر ربه أنساه تعالى نفسه؛ حتى يورده موارد العطب والهلاك، وقد قال في بيان شؤم

ذلك وخطره على دين المرء: عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) (١) .

وجاء في الأثر: (حب الدنيا رأس كل خطيئة) (٢)

وقال بعض السلف: "من أحب الدرهم والدينار فليتهياً للذل".

ولما نظر الإمام الحسن البصري - رحمه الله - إلى بعض أهل زمانه ورأى تكالبهم على الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة قال: "أمؤمنون بيوم الحساب هؤلاء؟! كلا، كذبوا ومالك يوم الدين".

وإن من مظاهر غلبة حب الدنيا على القلوب، واستيلائها على النفوس لدى البعض، أن لا يكون لهم هم إلا البحث عن الجاه العريض، والشهرة الواسعة، وإن كان على حساب الدين والفضيلة، وآخرون ليس لهم هم سوى جمع الأموال، وتضخيم الثروات؛ حتى سلكوا في تحصيل ذلك مسالكاً مشبوهة، وسبلاً محرمة.

فإن لهذه الغفلة آثاراً سلبية ونتائج فادحة، قد تصيب المرء في مقاتله، وخصوصاً إذا فاته الأوان بأن لقي ربه وهو على تلك الحال من الانغماس في

١ - أخرجه أحمد ح ١٥٢٢٤ والدارمي ح ٢٧٨٦ والترمذي ح ٢٢٩٨ والبيهقي في الشعب ح ٩٨٩٦ وابن حبان في صحيحه ح

٣٢٩٧ وقال لألباني (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٦٢٠ في صحيح الجامع .

٢ - الإيمان عنه ٧ : ٣٣٨ رقم ١٠٥٠١ ، وأثنى الحافظ ابن حجر على مراسيل الحسن ، فتح القدير ٣ : ٣٦٨ رقم ٣٦٦٢ ، وكشف الخفاء

١ : ٤١٢ ، ٤١٣ ، وهو ضعيف لدى السيوطي وقد تابعه الألباني ، ضعيف الجامع الصغير ٣ : ٩٠ الحديث ٢٦٨ . وقد نسب الإمام أحمد

ابن حنبل هذا القول في "الزهد" إلى عيسى عليه السلام.

المنكرات وترك الواجبات. ومن تلك الآثار القبيحة الخطيرة على الفرد والأسرة والمجتمع ما يأتي:

أ- شقاوة في الحياة وضنك في المعاش، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿طه: ١٢٤-١٢٥﴾

ب- نزول العذاب ومباغتته، ولا يجد العاصي معينا ولا منجى ولا ملجأ، قال تعالى: وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.

ج- الحسرة والندامة يوم القيامة على التفريط في دين الله، وهو وقت لا ينفع فيه الندم.

د- تمني العودة والكرة إلى الدنيا لاستدراك ما فات، وهو أمر ممتنع ولا شك، قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿الزمر: ٥٦﴾

تاسعا: مانع الكبر والعزة بالإثم من موانع التوبة

يعد الكبر من أعظم الموانع النفسية التي تحول بين العبد وبين التوبة النصوح؛ فالكبر مرض قلبي يورث الاستعلاء ويصد عن الانقياد للحق، والتوبة في

جوهرها هي خضوع وانكسار واعترف بالذنب بين يدي الله تعالى، وهذان لا يلتقيان.

ويمكن توضيح أثر الكبر في منع التوبة من خلال الأوجه الآتية:

رفض الاعتراف بالذنب (بطر الحق):

التوبة تبدأ من شعور العبد بالتقصير والخطأ، أما المتكبر فيرى نفسه أرفع من أن يخطئ، أو يستنكف عن الاعتراف بذنبه لئلا يسقط قدره -بزعمه-، فيقع في "بطر الحق" الذي حذر منه النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس ».(^١)

«رد الحق أن الإنسان يستكبر عن الحق يقال: هذا حق فيعرض والعياذ بالله وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم وألا يراهم شيئا قال رجل لابنه يا بني كيف ترى الناس؟ قال: أراهم ملوكا قال هم يرونك كذلك وقال آخر لابنه: كيف ترى الناس قال: لا أراهم شيئا قال: هم كذلك يرونك يعني إذا رأيت الناس ملوكا فهم يجعلونك ملكا وإذا لم ترهم شيئا لا تكون أنت شيئا عندهم فالناس ينظرون إليك بقدر ما تنظر إليهم»(^٢)

^١ - أخرجه مسلم [٩١]، والترمذي [١٩٩٩]،

^٢ - «شرح رياض الصالحين لابن عثيمين» (٤/ ٣١١)

حجاب عن رؤية العيوب والذنوب:

الغرور بالنفس: المتكبر يرى نفسه دائماً على صواب، ولا يرى في أفعاله خطأً يستوجب الاستغفار.

العمى عن الحق: الكبر يطمس بصيرة القلب، فلا يشعر صاحبه بتقصيره في حق الله، بل قد يرى معصيته هينة أو مبررة.

الامتناع عن الخضوع والانكسار:

فقدان روح العبودية: التوبة تقوم في أصلها على الانكسار، والذل، والندم بين يدي الله، وهي صفات تتناقض تماماً مع طبيعة المتكبر الذي يرفض الذل لغير نفسه.

الاستنكاف عن الدعاء: قد يمنع الكبر صاحبه من رفع يديه والاعتراف بضعفه وحاجته إلى مغفرة الله ورحمته.

الإصرار على الباطل (العناد)

رفض النصيحة: إذا نُصح المتكبر أو ذُكر بالله، أخذته العزة بالإثم، فيصر على ذنبه نكايةً بمن نصحه أو استعلاءً عليه.

الاستمرار في المعصية: يتحول الذنب البسيط لدى المتكبر إلى ذنب مركب بسبب إصراره وعناده، مما يصعب طريق العودة.

الحرمان من التوفيق الإلهي:

صرف الآيات عن القلب: قال الله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، فالجزاء من جنس العمل، ولما استكبروا صرف الله قلوبهم عن الهداية والتوبة.

الطبع على القلب: الكبر يؤدي إلى قسوة القلب حتى يُطبع عليه، فلا تؤثر فيه المواعظ ولا يتحرك للندم.

محاكاة مسلك إبليس:

شؤم البداية: الكبر هو الذنب الأول الذي عُصي الله به، حيث منع إبليس من الامتثال لأمر الله والاعتراف بخطئه، فاختر الطرد واللعنة على التوبة والاستغفار، بخلاف آدم عليه السلام الذي انكسر لله فتاب الله عليه.

أول من منعه الكبر من الانقياد والتوبة هو إبليس، حين امتنع عن امتثال أمر الله استكباراً: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فيكون المتكبر عن التوبة متأسياً بإبليس في امتناعه.

قال بعض السلف (سفيان بن عيينة رحمه الله): «من كانت معصيته في شهوة فارجُ له التوبة؛ فإن آدم عصى مشتتياً فغفر له، ومن كانت معصيته من كبر فاخشَ عليه؛ فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعِنَ».

مقارنة مهمة:

معصية الشهوة (مثل آدم عليه السلام): يرجى لصاحبها التوبة؛ لأن الندم يأتي بسهولة بعد زوال الشهوة.

معصية الكبر (مثل إبليس): يصعب معها التوبة؛ لأنها مبنية على الاستكبار والاستعلاء، وهذا يحجب القلب عن الرجوع إلى الله.

خلاصة القول: التوبة بوابة مفتوحة لجميع المذنبين، لكن الكبر يغلق هذه البوابة من جهة العبد، لأنه يمنعه من الاعتراف بالخطأ، ويحرمه من لذة الانكسار بين يدي الخالق، فيظل سادراً في غيه حتى يفاجئه الموت.

المبحث الثاني: الموانع الخارجية والشيطانية

أولاً: الاتكال على سعة رحمة الله دون عمل.

ثانياً: بحلم الله وإمهاله للعصاة.

ثالثاً: الصحبة السيئة والبيئة التي تشجع على المعصية.

رابعاً: وسوسة الشيطان وتزيين المعصية أو تشييط التوبة.

خامساً: الإسراف في المباحات حتى تقود إلى المحرمات.

سادساً: الذنوب المتراكمة التي تُحدث الران على القلب.

سابعاً: العادات والتقاليد

ثامنا: غلق باب التوبة

أولاً: الاتكال على سعة رحمة الله دون عمل.

أخي القارئ الكريم: إن من أسباب وموانع التوبة الاتكال على سعة رحمة الله مع الإقامة على المعاصي وعدم العمل هو خديعة نفسية ومذمومة شرعاً تُعرف بـ «الأمن من مكر الله»

إن من أخطر الأمور التي تقع فيها ويقع فيها كثير من الناس، الاغترار بالله، والأمن من مكره سبحانه مع العمل الدؤوب في الدنيا، والإغراق في ملاذها، والعزوف عن عمل الآخرة.

والبعض الآخر من الناس، قد آمن من مكر الله، اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمهم وضيعوا أمره ونهيهم، ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم

المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند، قال معروف الكرخي: "رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق".

ومن علامات هذا المانع:

- تأخير التوبة بحجة أن العمر ما زال طويلاً .
- الاستمرار في الذنب مع تردد :الله غفور رحيم .
- عدم الخوف من سوء الخاتمة .
- ترك الطاعات اعتماداً على مجرد الأمانى .
- اعتقاد أن محبة الله ورحمته تعنيان عدم المؤاخذه على المعاصي .
- التسويف :سأتوب عندما أكبر، أو عندما أتزوج، أو عندما تنتهي مشاغلي

ومن تدبر في شرع الله تعالى وحدوده التي حدها للناس علم معنى أن الله شديد العقاب.

قال أبو الوفاء بن عقيل: "احذر ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت المرأة النار في هرة، واشتعل الشملة ناراً على من غلها شهيداً".

ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله- في كتابه المهم (الداء والدواء) أن من الأمور المهمة أن يحذر الإنسان من الاغترار بعفو الله تعالى ، «فإنَّ العبد يعرف أنَّ المعصية والغفلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته، ولا بدَّ، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو الله ومغفرته تارة، وبالتسويف بالتوبة تارة،

وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشباه والنظراء والاقتداء بالأكابر تارة.

وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل، ثم قال: "أستغفر الله" زال أثر الذنب، وراح هذا بهذا!

وقال لي رجل من المتتبعين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه".

وذكر شيئاً من مغالطاتهم، وكلامهم، ثم قال: «وهذا الضرب من الناس قد تعلّق بنصوص الرّجاء، وأتكل عليها، وتعلّق بها بكلمات يديه. وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرّد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء".

وقال: «وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}.

وهذا أيضاً من أقبح الجهل، فإنّ الشرك داخل في هذه الآية، فإنّه رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أنّ هذه الآية في حق التائبين، فإنّه يغفر كل ذنب للتائب، أي ذنب كان. ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلّها... وهذا إنّما أتّي صاحبه من قلة علمه وفهمه، فإنه سبحانه ههنا عمّم وأطلق؛

فعلّم أنه أراد التائبين. وفي سورة النساء خصّص وقيد، فقال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه.

ولو كان هذا في حقّ التائب لم يفرّق بين الشرك وغيره.

.. فعلم أنّ جعل الشيء سبباً للتكفير لا يمنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلّما قويت أسباب التكفير كان أقوى وأتم وأشمل^(١).

ولله ما ذكره رحمه الله بقوله : " وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حالّ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعتته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه، وأصرّ عليه!

وكيف يحسن الظن به من بارزه بالمحاربة، وعادى أوليائه، ووالى أعداءه، وجحد صفات كماله، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفته به رُسُله، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟.

وكيف يحسن الظنّ به من يظنّ أنه لا يتكلّم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يرضى، ولا يغضب؟

وقد قال تعالى في حق من شكّ في تعلّق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السرّ من القول: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)} [فصلت: ٢٣]، فهو لاء لما ظنّوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءةً لظنهم برئهم، فأرداهم ذلك الظن.

^١ - الداء والدواء : (١/ ٣٦-٤٨).

وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله ووَصَفه بما لا يليق به. فإذا ظنَّ هذا أنه يُدْخِلُه الجنة كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلاً من الشيطان، لا إحسانَ ظنَّ برَّه.

فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه! وكيف يجتمع في قلب العبد تيقُّنه بأنَّه ملاقُّ الله، وأنَّ الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم سرَّه وعلايته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطلٌ لحقوقه. وهو مع هذا محسنٌ الظنِّ به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأمانى؟.

«ومن تأمل هذا الموضع حقَّ التأمل علمَ أنَّ حسنَ الظنِّ بالله هو حسنُ العمل نفسه، فإنَّ العبد إنما يحمله على حسن العمل، حسنُ ظنِّه برَّه أن يجازيه على أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه.

فالذي حمله على العمل حسنُ الظنِّ، وكلَّما حسنُ ظنُّه حسنُ عمله، وإلا فحسنُ الظنِّ مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسنَد من حديث شدَّاد بن أوس عن النبي - ﷺ - أنه قال: "الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله".

وبالجملة، فحسن الظنِّ إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاح، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك، فلا يتأتَّى إحسان الظنِّ.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستندُ حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك، وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزة، والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة.

فلو كان معولُ حسنِ الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشارك في ذلك البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، وأوضع في محارمه، وانتهك حرّماته؟ بل حسن الظن ينفع من تاب، وندم، وأقْلَع، وبَدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم حَسَّن الظنّ. فهذا حسن الظن، والأول غرور! والله المستعان»^(١)

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى قوله: **(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ)**، فبكى واشتد بكاءه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو في الموت: "ويحك، ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني"، ثم قال: "ويل أُمِّي إن لم يغفر الله لي"، ثلاثاً، ثم قضى، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخيفه فيبقى في البيت أياماً، ويعاد ويحسبونه مريضاً، وكان في وجهه -رضي الله عنه- خطان أسودان من

^١ - "الجواب الكافي" (١/ ٤٨ - ٤٩).

البكاء، وقال له ابن عباس: "مَصَّرَ الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل"، فقال: "وددت أني أنجو لا أجز ولا وزر".^(١)

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبيل لحيته، وقال: "لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لا اخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير".^(٢)

«قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندي التماذي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمني على الله عز وجل مع الإفراط

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس».^(٣)

ثانياً الاغترار بحلم الله وإمهاله للعصاة.

أخي المسلم الحبيب -اعلم بارك الله فيك - أن من موانع التوب الاغترار بحلم الله وإمهاله للعصاة فتجد الإنسان يعصي ربه ويتمادي في الخطأ وإذا حدثته ونهيته يقول لك: انظر حولك تجد كثير من الناس يعصون ولا يعاقبون فهذا

^١ - أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٧) وأبو نعيم في الحلية (٥٢ / ١) وابن شبة في تاريخ المدينة (٣ / ٩١٥). وسنده صحيح.

^٢ - أخرجه أحمد في الزهد (٦٨٥) وأبو نعيم في الحلية (١ / ٦٠).

^٣ - «إحياء علوم الدين» (٤ / ١٤٤)

يتعامل بالربا منذ كذا و كذا سنة و كثرة أمواله و تغيرت احواله ما عاقبه الله تعالى على لك

﴿حلم الله ليس إذناً بالمعصية:﴾

إن من أسماء الله تعالى الحليم، فهو سبحانه لا يعاجل العصاة بالعقوبة مع قدرته عليهم، ويفتح لهم أبواب الرجوع والتوبة، ويمد لهم في العمر، ويرسل إليهم النذر والمواعظ؛ رحمة بهم وإقامة للحجة عليهم.

لكن الشيطان يقلب هذه النعمة إلى حجة للمعصية، فيقول للعبد: لو كان ذنبك خطيراً لعاقبك الله منذ زمن! وهذا من أعظم الغرور؛ لأن الواجب على العبد إذا ستر الله عليه وأمهله أن يقول: هذه فرصة من الله لأتوب، لا فرصة لأزداد ذنباً.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨].

ومن صور الاغترار بحلم الله:

أن يقول العاصي: لو أراد الله أن يعاقبني لعاقبني الآن.

أن يستمر في الذنب لأنه لم ير عقوبة عاجلة.

أن يرى كثرة النعم عليه، فيظن أنها دليل على محبة الله له.

أن يؤخر التوبة اعتماداً على طول الأمل.

أن يكرر الذنب قائلًا: سأتوب فيما بعد.

أن ينسى أن الموت قد يأتي بغتة، وأن الإنسان لا يملك ضمانًا لبقاء الفرصة.
فإن العبد إذا رأى نفسه مقيمًا على المعصية، ولم ير عقوبة عاجلة، قد يظن أن الله راضٍ عنه، فيتمادى في غيه، ويؤخر التوبة، ويطول عليه الأمل. وما علم أن حلم الله ليس إذنا بالمعصية، وإمهاله ليس إهمالًا، وتأخير العقوبة ليس أمانًا منها. بل قد يكون الإمهال استدراجًا، وقد تكون السلامة الظاهرة فرصة أخيرة للرجوع إلى الله. فالعاقل من جعل حلم الله حافزًا إلى التوبة، ورحمته باعثًا على الإنابة، ولم يغتر بالإمهال، بل بادر قبل أن يغلق باب التوبة، وتأتي ساعة لا ينفع فيها الندم.

و انظر إلى اكل أموال اليتامى ثم انظر إلى اكل الرشوة ثم انظر إلى تلك المتبرجة الفاتنة وهلم جرا فيدعوه ذلك إلى التماذي و عدم التوبة مما هو عليه و هذا باب من ولجه هلك و من استباحة خسر و خاب في الدنيا و الآخرة

لقد تجرأنا على الله، واغتررنا بحلم الله، وأمنّا مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، نسينا أن الله هو المبدئ المعيد، وأنه هو الغني الحميد، وأنه ذو البطش الشديد ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، أنعم علينا بنعم لا تحصى فما شكرنا، وابتلانا بأنواع المصائب

والآفات فما اعتبرنا، ودعانا إلى هدايته فما أجبنا، بل تعدّينا حدّه، ونقضنا عهده
﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

إن سبب هذا الغرور أننا لم نخش الله حقّ خشيته، ولم نخفّ شدة عقابه
ونقمته، ولم نعرفه حقّ معرفته؛ لأنّ مَنْ عَرَفَ الله خشيه، ومَنْ خَشِيَ اتقاه ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

سبب هذا الغرور أننا تهاوناً بذنوبنا؛ حتى طبع الله على قلوبنا، فلم ننتفع بآيات
الله، ولم نتعظ بمواعظ الله، ولم نتأثر بقوله - جلّ علاه - : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وروى الترمذي بسند صحيح، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه
قال: ((إن العبد إذا أخطأ خطيئة، نُكِتت في قلبه نقطة سوداء، فإذا هو نزع
واستغفر وتاب، سُقِلَ قلبه، وإن عاد زيدَ فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي
ذكر الله ﴿كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]) (١).

وروى ابنُ حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة رضي
الله عنه، أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: ((قال الله - سبحانه وتعالى - :

^١ - حسن، وأخرجه ابن ماجه (٤٢٤٤)، والنسائي في "اليوم واللييلة" (٤١٨)، وهو في "المسند" (٧٩٥٢)، و"صحيح ابن حبان" (٩٣٠)

وعزتي وجلالي، لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمينين؛ إن أمني في الدنيا أخفته في الآخرة، وإن خافني في الدنيا أمنت يوم القيامة)) (١)

وروى الترمذي (وقال: حديث صحيح) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ثم قال: ((أتدرون ما أخبارها؟))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)) (٢).

فإن من الذنوب العظيمة عند الله الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]؛ أي: عذابنا ونكالنا ليلاً وهم نائمون، ﴿أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]؛ أي: في نهارهم وهم في شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، وذلك أن هؤلاء القوم المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود أغدق الله عليهم النعم والخيرات مع عصيانهم لله، فاستبعدوا أن يكون مكرًا

١ - حسن. أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (٩٨ / ٦)، وتابعه البزار، وأورده الهيثمي في المجمع (٣٠٨ / ١٠)

٢ - أخرجه الترمذي في القيامة، باب الأرض تحدث أخبارها يوم القيامة: ٧ / ١١٦ وقال: "هذا حديث حسن غريب". وفي التفسير: ٩ / ٢٨٦، والنسائي في التفسير: ٢ / ٥٤٤ وصححه الحاكم: ٢ / ٢٥٦ على شرط الشيخين وأقره الذهبي ثم كرهه في ٢ / ٥٣٢ فتعقبه الذهبي بقوله: "يحیی هذا يحيى بن أبي سليمان، منكر الحديث، قاله البخاري". وصححه ابن حبان برقم: (٢٥٨٦) صفحة: (٦٤١) من موارد الظمان وأخرجه الإمام أحمد: ٢ / ٣٧٤، والمصنف في شرح السنة: ١٥ / ١١٦ - ١١٧، وله شاهد عند الطبراني: ٧ / ١٤١ - ١٤٢. وانظر: الكافي الشاف صفحة: (١٨٦ - ١٨٧) والدر المنثور: ٨ / ٥٩٢.

واستدراجاً من الله، أو أن يأتيهم العذاب في أي لحظة، قال قتادة رحمه الله:
بَغَتِ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ، وما أخذ الله قوماً إلا عند سلوتهم وغررتهم ونقمتهم، فلا
تغرُّوا بالله (١) .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في تعليقه على قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ﴾، (هذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن
يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً وجللاً أن يُبتلى ببليّة تسلب
ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على
دينك، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن
العبد ولو بلغت به الحال ما بلغت فليس على يقين من السلامة) (٢) . ١ هـ.

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه؛ أن النبي
ﷺ قال: ((إذا رأيت الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو
استدراج))، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:
٤٤] .

وقال إسماعيل بن رافع: الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على
الله المغفرة، وقد فسر بعض السلف المكر بأن الله يستدرجهم بالنعم إذا
عصوه؛ من صحّة الأبدان، ورغد العيش، وغيرها، ويُملي لهم ثم يأخذهم أخذ

١-فتح المجيد ص ٤١٥.

٢-تفسير ابن سعدي ص ٢٧٦.

عزيز مقتدر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. (١)

📖 تب قبل امتلاء الصاع!:

عن معاذ بن جبل قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له، وكان يخرج فإذا رأى غلاماً من غلمان بني إسرائيل عليه حلى يخدعه، حتى يدخله بيته، فيقتله ويلقيه في مطمورة له، فبينما هو كذلك إذ لقي غلامين أخوين عليهما حلى فأدخلهما بيته وقتلهما وطرحهما في مطمورته. وكانت له امرأة مسلمة تنهاه عن ذلك، وتقول له إني أحذرك النعمة من الله عز وجل.

فيقول: لو أن الله يأخذني على شيء لأخذني يوم فعلت كذا وكذا فتقول له المرأة: إن صاعك لم يمتلىء ولو امتلأ صاعك لأخذت فلما قتل الغلامين، خرج أبوهما في طلبهما فلم يجد أحداً يخبره عنهما، فأتى نبيا من أنبياء إسرائيل، وذكر ذلك له فقال له ذلك النبي: هل كان معهما لعبة يلعبان بها؟ فقال أبوهما: نعم كان لهما جرو. قال فائتني به فأتاه به فوضع النبي خاتمه بين عينيه ثم حلى سبيله، ثم قال: أول دار يدخلها من دور بني إسرائيل فيها بيان ذلك. فأقبل الجرو يتخلل الدور حتى دخل دار من دور بني إسرائيل، فدخلوا خلفه فوجدوا الغلامين مقتولين مع غلمان كثيرة قد قتلهم وطرحهم في المطمورة.

١ - رواه الإمام أحمد ٤/ ١٤٥، والطبري في "تفسيره" ٥/ ١٩٣ (١٣٢٤٣)، والطبراني ١٧/ ٣٣٠ (٩١٣)، وفي "الأوسط" ٩/ ١١٠ (٩٢٧٢)، والبيهقي في "الشعب" ٤/ ١٢٨ (٤٥٤٥) من طرق عن حرملة بن عمران، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر به قال العراقي في "المغني عن حمل الأسفار" ٢/ ١٠٣٧ (٣٧٧٢): رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي في "الشعب" بسند حسن. وصححه الألباني في "الصحيحة" (٩١٣).

فانطلقوا به إلى ذلك النبي عليه السلام فأمر به أن يصلب، فلما رفع إلى الخشبة أتته امرأته وقالت: قد كنت أحذرك هذا اليوم، وأخبرك أن الله غير تاركك، وأنت تقول: لو أن الله يأخذني على شيء لأخذني يوم فعلت كذا وكذا. فأخبرك أن صاعك لم يمتلىء بعد، ألا وإن صاعك قد امتلأ (١)

وقال تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥]

يقول القطان - رحمه الله - ذرني ومن يكذب. . . . : كَلِّهِ إِلَيَّ وَاتْرَكْهُ لِي، فإني أكفيك أمره. بهذا الحديث: بهذا القرآن. سنستدرجهم: سننتقل بهم من حال إلى حال. وأُمْلِي لَهُمْ: أمهلهم، وأطيل لهم المدة. كيدي متين: تدبيري قوي. مغرم: غرامة. مثقلون: ثقيلة عليهم. صاحب الحوت: النبي يونس. مكظوم: مملوء غيظا. العراء: الفضاء، الأرض الخالية. فاجتباها: فاصطفاه. يُزْلِقُونَكَ: ينظرون إليك بغیظ وحنق حتى تزل وتزلق. لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ: القرآن الكريم. ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ: تذكير للعالمين.

اترك يا محمد من يكذب بالقرآن لي، فإني عالم بما ينبغي أن أفعل بهم. . . . سنذنبهم من العذاب درجة بعد درجة فتزداد معاصيهم من حيث لا يشعرون، وأمهلهم بتأخير العذاب، إن تدبيري حين آخذهم قوي لا يفلت منه أحد. وفي الحديث الصحيح: إن الله تعالى لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ (٢)

١ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٩٤).

٢ - تفسير القطان - (ج ٣ / ص ٣٦٣)

" أليس الله قد أجاب إبليس دعوته وهو أبغض خلقه إليه.. عندما قال له إبليس

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ

الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨].

فأنت تطلب الرزق.. والزوجة الجميلة.. الطيبة.. والوظيفة المريحة.. فيعطيك

وعندها تظن أن الله يحبك.. ألا ترى معاصيك ومخازيك.. ألا تتدبر قول الله

تعالى ﴿إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

كيف يعوق الاغترار بالحلم سلوك طريق التوبة؟

❖ انخداع العقل بالستر والإمهال: يظن المغرور أن عدم تعجيل العقوبة السريعة

بعد الذنب دليلٌ على رضا الله عنه أو عدم مؤاخذته بهذا الفعل، فيستمرئ

الخطيئة.

❖ الوقوع في شَبَكَةِ الاستدراج: النِّعَمُ المتواترة والستر المتتابع مع المقاومة

بالمعاصي ليست إكراماً، بل هي استدراج إلهي يُغفل القلب حتى يتفاجأ

بالعقوبة بغتة.

الانتقال من الضعف إلى الجرأة: يتبدى العاصي ذنبه بالخوف والحياء، فإذا رأى

الحلم والستر زال عنه الخوف، وتجرأت جوارحه على ارتكاب الذنوب بجهار

وعلانية.

المراهنة على التوبة المستقبلية: الاغترار بالحلم يُغذي التسويف وطول الأمل، فيقنع العاصي نفسه بوجود وقتٍ متسع للتوبة قبل فوات الأوان.

ثالثاً-الصحبة السيئة والبيئة التي تشجع على المعصية.

اعلم بارك الله فيك-: أن الصحبة السيئة مانع من موانع التوبة و الأوبة إلى الله تعالى فصديق السوء كلما راك تريد إن ترجع إلى ربك زين لك المعصية و رغبتك فيها، عن سعيد ابن أبي أيوب قَالَ لا تصاحب صاحب السوء فإنه قطعة من النار لا يستقيم وده ولا يفي بعهده».(١)

«قال لقمان لابنه: يا بني! إياك وصاحب السوء، فإنه كالسيف المسلول، يعجبك منظره، ويقبح أثره»(٢)

تُعدّ الصحبة السيئة والبيئة الداعية إلى المعصية من أقوى الموانع الخارجية التي تحجب العبد عن التوبة؛ لأن الإنسان يتأثر -بطبعه- بمحيطه، والبيئة الفاسدة تُشكّل جداراً عازلاً يمنع وصول دواعي الخشية والندم إلى القلب.

كيف تعوق الصحبة والبيئة الفاسدة طريق التوبة؟

تطبيع المعصية وزوال استقباحتها: عندما يرى العبد من حوله يمارسون الذنب جهاراً، يقلّ في عينه قبح المعصية وتتحول إلى سلوك طبيعي لا يستوجب الندم.

^١ -«روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١١٩)

^٢ -«بهجة المجالس وأنس المجالس» (ص١٥٥)

«فاحذر صحبة الفاسق؛ فإن مشاهدة الفسق والمعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية، وتهون عليك أمرها، ولذلك هان على القلوب معصية الغيبة لإلفهم لها، ولو رأوا خاتما من ذهب أو ملبوسا من حرير على فقيه لاشتد إنكارهم عليه، والغيبة أشد من ذلك.»^(١)

❖ إشعال الهوى وتثبيط الهمة: صاحب السيئ يُزَيِّن الذنب ويُسهِّل أسبابه، وفي المقابل يُثَبِّط صاحبه إذا رآه يتجه نحو الصلاح والتوبة بأساليب السخرية أو التشكيك.

❖ إيجاد البدائل الشيطانية: البيئة السيئة تُبقي العبد في حالة شغور دائم بالمعصية، فلا تترك لقلبه لحظة خلوة للتفكير والراجعة والاستغفار.

❖ الخوف من العزلة والرفض الاجتماعي: يستثقل العاصي التوبة خوفاً من خسارة أصدقائه أو تعرضه للنبذ من مجتمعه الذي اعتاد عليه.

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

لَا تَصْحَبِ الْجَاهِلَ إِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ

وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ مَقَائِيسُ وَأَشْبَاهُ

^١ - «بداية الهداية» (ص ٦٦)

وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ^(١)

أن أصدقاء السوء يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة: قال الله تعالى: **(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ)** [العنكبوت: ٢٥].

وَمِنْهَا: الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: **(وَيَوْمَ يَعِصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي)** [الفرقان: ٢٧-٢٩]؛ فَكُلُّ مَنْ صَاحَبَ طَالِحًا وَجَارَاهُ عَصَّ يَدَيْهِ نَدَمًا وَأَسْفًا وَحَسْرَةً عَلَى مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، بَلْ يَزِيدُ عَطَاءً قَائِلًا: "يَأْكُلُ يَدَيْهِ حَتَّى تَبْلُغَ مَرْفَقَيْهِ، ثُمَّ تَبْتَنَانِ، ثُمَّ يَأْكُلُهُمَا، هَكَذَا كُلَّمَا نَبَتَتْ يَدَاهُ أَكَلَهُمَا تَحَسُّرًا عَلَى مَا فَعَلَ".

مِنْ صَدِيقِ سُوءٍ قَدْ أَرْدَى صَاحِبَهُ وَأَلْقَاهُ فِي الْهَلَكَةِ وَالْبَوَارِ، فَفِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ: **(وَيَوْمَ يَعِصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)**، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "الْمُرَادُ: عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَ لَا يَقْدَمُ مِنْ مَقَرٍّ إِلَّا صَنَعَ طَعَامًا يَدْعُو إِلَيْهِ جِيرَتَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَيَكْثُرُ مُجَالَسَةُ الرَّسُولِ وَيُعْجِبُهُ حَدِيثُهُ، فَصَنَعَ طَعَامًا وَدَعَا الرَّسُولَ، فَقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَا أَكُلُ مِنْ طَعَامِكَ حَتَّى تَأْتِيَ بِالشَّهَادَتَيْنِ"، فَفَعَلَ، فَبَلَغَ أُمِّيَّةَ بَنَ خَلْفٍ فَقَالَ: صَبَوْتَ يَا عُقْبَةُ! وَكَانَ خَلِيلَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِيَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي، فَقَالَ: لَا أَرْضَى أَبَدًا حَتَّى تَأْتِيَهُ فَتَبْزُقُ

^١ -«العزلة للخطابي» (ص ٤٩) و«بداية الهداية» (ص ٦٥)

فِي وَجْهِهِ وَتَطَأُ عَلَى عُنُقِهِ، فَفَعَلَ"، فَقُتِلَ عُقْبَةُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ أَبِي بْنُ خَلْفٍ يَوْمَ
أُحُدٍ، فَهُمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَصَدَقَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ إِذْ يَقُولُ: "صَاحِبُ السُّوءِ جَذْوَةٌ
مِنَ النَّارِ".

وَصَاحِبُ خِيَارِ النَّاسِ تَنْجُ مُسْلِمًا وَمَنْ صَحِبَ الْأَشْرَارَ يَوْمًا سَيَجْرَحُ

وَهَذَا أَبُو طَالِبٍ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ خُطْوَةٌ وَاحِدَةٌ، لَوْلَا رُفْقَةُ
السُّوءِ؛ فَلَمَّا "حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ
بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: "يَا
عَمُّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ"، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ
بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ
عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).^(١)

وَهَذَا ثَالِثُهُمْ كَادَ أَنْ يَمُوتَ عَلَى الْكُفْرِ هُوَ الْآخِرُ بِسَبَبِ رَفِيقِ السُّوءِ لَوْلَا أَنْ
تَدَارَكَتْهُ عِنَايَةُ اللَّهِ -تَعَالَى-، وَإِنْ حَرَمَهُ خَلِيلُهُ مِنْ خَيْرٍ كَثِيرٍ، فَلَمَّا وَلِيَ مَرْوَانَ بْنُ
الْحَكَمِ الْمَدِينَةَ دَخَلَ عَلَيْهِ حُوَيْطُبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى، فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: تَأَخَّرَ
إِسْلَامُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ حَتَّى سَبَقَكَ الْأَحْدَاثُ، فَقَالَ حُوَيْطُبُ: "وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ
بِالْإِسْلَامِ غَيْرَ مَرَّةٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَعُوقُنِي أَبُوكَ عَنْهُ وَيَنْهَانِي، وَيَقُولُ: تَضَعُ شَرَفَ

^١ - رواه البخاري وصححه (الفتح ٣: ١٧٦، ١٧٧). ورواه مسلم في صحيحه ١: ٢١٣ - ٢١٦.

قَوْمِكَ، وَدِينَ آبَائِكَ، لِدِينٍ مُّحَدَّثٍ، وَتَصِيرُ تَابِعَهُ؟!" قَالَ: فَأَسْكَتَ مَرْوَانَ وَنَدِمَ
عَلَى مَا كَانَ قَالَ لَهُ. (رَوَاهُ الْحَاكِمُ).^(١)

وَلَا تَزَالُ رُفْقَةُ السُّوءِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَأَوَانٍ سَبَبَ التَّأَخُّرِ، وَالْهَلَاكِ، وَالذُّلِّ،
وَالْبَوَارِ، وَالْهُوَانِ.

وإن للبيئة الفاسدة تأثير على صاحبها ولا بد ومن الأدلة على تأثير البيئة الفاسدة
على الإنسان ما ورد عن النبي ﷺ في قصة من قتل مائة نفس، ففي الصحيحين
واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ فِي
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ سَمِعْتُهُ أُذْنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي: "إِنَّ عَبْدًا قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا،
ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ التَّوْبَةُ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذُلَّ عَلَى رَجُلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ:
إِنِّي قَتَلْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: بَعْدَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ نَفْسًا!
قَالَ: فَانْتَضَى سَيْفَهُ فَقَتَلَهُ، فَأَكْمَلَ بِهِ الْمِئَةَ، ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ التَّوْبَةُ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ
أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذُلَّ عَلَى رَجُلٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنِّي قَتَلْتُ مِئَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لِي مِنْ
تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ! [و] مَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ اخْرُجْ مِنَ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ
الَّتِي أَنْتَ بِهَا، إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةً كَذَا وَكَذَا، فَاعْبُدْ رَبَّكَ فِيهَا، فَخَرَجَ يُرِيدُ
الْقَرْيَةَ الصَّالِحَةَ، فَعَرَضَ لَهُ أَجَلُهُ فِي الطَّرِيقِ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ

^١ - إسناده ضعيف تفرد به محمد بن عمر الواقدي، وإبراهيم بن جعفر وأبوه صالحان، وأغلب الظن أنه منقطع بين جعفر بن محمود
وحويطب.

ورواه عن محمد بن عمر الواقدي بن سعد في "الطبقات" ٦/ ١٢٧ - ١٢ ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" ١٥/ ٣٦١، وابن
الجوزي في "المنتظم" ٥/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، قَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا أَوْلَى بِهِ، إِنَّهُ لَمْ يَعْصِنِي سَاعَةً قَطُّ". قَالَ:
"فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: إِنَّهُ خَرَجَ تَائِبًا". (١)

فانظر كيف أثرت عليه هذه البيئة الفاسدة التي كان يعيشها، حتى ارتكب هذه
الكبيرة العظيمة، فكان لابد من الخروج من هذه البيئة الفاسدة إلى بيئة صالحة
تعينه على عبادة الله - عز وجل - وترك هذه الكبيرة، فكانت نصيحة ذلك
العالم له بالخروج منها إلى مكان به أناس صالحون يعبدون الله - عز وجل -
فيعبده معهم.

🔗 أثر الصلابة السيئة في إضعاف إرادة التوبة:

الصاحب السيئ لا يكتفي غالباً بارتكاب المعصية، بل قد يجعلها في عين
صاحبه شيئاً مألوفاً، فيقول له:

الجميع يفعل ذلك.

لا تشدد على نفسك.

أنت ما زلت صغيراً.

تب فيما بعد.

الله غفور رحيم.

^١ - أخرجه: البخاري ٤ / ٢١١ (٣٤٧٠)، ومسلم ٨ / ١٠٣ (٢٧٦٦) (٤٦) و (٤٧) و (٤٨).

لا تجعل الدين يحرمك من الحياة.

وبمرور الوقت تتغير موازين الإنسان؛ فيصبح المنكر عنده معروفًا، والمعروف غريبًا، ويستثقل الطاعة ويستوحش منها.

📌 البيئة قد تجعل المعصية عادة:

ليست المشكلة دائمًا في شخص واحد، بل قد تكون في بيئة كاملة تشجع على الذنب.

فمن يعيش في بيئة يكثر فيها السب والشتم، قد يعتاد ذلك. ومن يعيش في بيئة تستهين بالنظر المحرم، قد يضعف إنكاره. ومن يعيش بين قوم يتعاملون مع الغيبة والنميمة على أنها تسلية، قد يصبح تركهما أمرًا غريبًا.

ولهذا فإن البيئة المحيطة بالإنسان لها أثر كبير في تثبيت الطاعة أو ترسيخ المعصية.

📌 ثالثًا: الصحبة السيئة قد تحارب التائب

ومن أخطر صور الصحبة السيئة أن يحاول الإنسان التوبة، فيجد أصحابه يسخرون منه، أو يذكرونه بماضيه، أو يدعونهم إلى العودة إلى ما كان عليه.

وقد يقولون له:

لقد عرفناك على هذه الحال، فما الذي تغير؟

فيضعف المسكين، ويعود إلى ذنبه.

«والناس ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يتسلى به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع؛ فتجب مداراته إلى الخلاص منه، وفي مشاهدته فائدة عظيمة إن وفقت لها، وهو أن تشاهد من خبائث أحواله وأفعاله ما تستقبحه فتجتنبه؛ فالسعيد من وعظ بغيره، والمؤمن مرآة المؤمن، وقيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ فقال: ما أدبني أحد، ولكن رأيت جهل الجاهل فاجتنبته. ولقد صدق - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - فلو اجتنب الناس ما يكرهونه من غيرهم لكملت آدابهم واستغنوا عن المؤدبين.»^(١)



رابعاً: وسوسة الشيطان وتزيين المعصية أو تشييط التوبة.

اعلم بارك الله فيhek-: أن من موانع التوبة أن يأتي الشيطان للعبد و يوسوس له إما بفعل المعصية و بتزيينها في عينه و إما أن يوسوس له بأن ذنبه كبير و أن الله

^١ - «بداية الهداية» (ص ٦٦)

تعالى لن يغفر له مهما تاب فيصاب العبد باليأس و القنوط من رحمة الله تعالى

وقد بين هو بنفسه معالمَ فقهه هذا، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]؛ أي: أحبب إليهم

المعاصي، وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجًا، وإليك التطبيق

العملي لهذا الفقه الشيطاني كما ذكرته النصوص القرآنية، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا

إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، الآية تبين أن الله سبحانه وتعالى أخذ هؤلاء القوم

بالبأساء والضراء لعلهم يتضرَّعون، ولكنهم لم يتضرَّعوا بسبب قساوة قلوبهم،

وإذا كان النص القرآني يتحدث عن أمم أرسل الله لها رسلاً، فإنه يتحدث في

ذلك عن جانب من أسرار سنته وقدره؛ لناخذ نحن حذرنا، وننَّعظ وندرك ما

وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة، افتتح النص بـ (لولا)

التي تفيد أنه ما كان لهم من عذرٍ في ترك التضرُّع إلا عنادهم، وقسوتهم،

وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم (١).

وقسوة القلب هذه كانت خيرَ مُعين للشيطان على الوسوسة والنَّفث؛ إذ زين لهم

الاستمرار على هذا الكبر والتكذيب للرسل، وتقبيح الطَّاعة لهم، فظنوا أن ما

^١ -ينظر: التفسير الكبير؛ الرازي - ج (١٢)، ص (١٨٥)، والأساس في التفسير؛ سعيد حوى - م ٣، ص (١٦٣٠).

هم عليه دين الحق، فتمتّعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان (١).

فالشيطان عندما يبرز للتزيين، يبحث عن مواضع الضعف عند الإنسان فيركز عليها، ألم نر في قصّة الصراع الأولى كيف حرّك في نفس أبينا آدم وزوجه غريزة حبّ البقاء، فأوقعهم من خلالها في شراكه؟! فكذلك هو هنا، وقف على نقطة الضعف عند هؤلاء، إنّها قسوة القلب الذي تحجّر ومات، (فلم تعد الشدّة تثير فيه الإحساس، وتعطلّت أجهزة الاستقبال الفطريّة فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبّه القلوب الحية للتلقّي والاستجابة، والشدّة ابتلاء من الله لعبده، فمن كان حيّاً أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردّته إلى ربّه، وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه، وإن كان ميتاً حسب عليه ولم تفده شيئاً، وإنما استقطعت عذره وحجّته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب) (٢).

وفي مسيرة التزيين الشيطاني يطالعنا النصّ القرآني بإشارة فيها نوع من التسلية والتبثيت للنبيّ صلى الله عليه وسلم، هذه الإشارة تتمثّل في أنّ فقه التزيين الشيطاني لم يقف عند قوم؛ وإنما هو مستمرٌّ مع وجود المجتمع الإنساني؛ قال تعالى: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]؛ فهذا قسم من الله تعالى بنفسه بأنّه قد أرسل رسلاً من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، دعوا الناس إلى عبادة

١ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ ابن السعدي، ص (٢٥٦).

٢ - الاتباع أنواعه وآثاره في بيان القرآن؛ محمد بن مصطفى السيد ج (٢)، ص (٥٢٥).

الله وحده، وترك الشرك، ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، (فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك) [١٢]، ولما أطاعوا في تكذيب الرسل، صار الشيطان ولياً لهم في الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾، ولا ولي لهم غيره، وبئست الولاية هذه التي تقود إلى العذاب الأليم يوم القيامة، والخسران في الدنيا^(١). [١٣].

ومن فقه التزيين أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]؛ ففي هذه الآية بيان صريح جداً يكشف عن سرّ ضلالهم؛ وهو تزيين الشيطان لأعمالهم، فقد عرفهم الله الحقّ وما يؤدّي إليه، والباطل وماذا يترتب عليه، فمن هاهنا كانوا ضمن دائرة الاستبصار، ولكن دائرة الاستبصار هذه انطفأت في صدور الذين كفروا؛ وذلك بعد أن زين لهم الشيطان أعمالهم، وأتبعوا أهواءهم، وعلى هذا كانت دائرة العمى، وعندما جاءهم رسولٌ من ربهم كي يعيدهم إلى دائرة الاستبصار، صدوا عن سبيل الله، وكان الصاد لهم تزيين الشيطان لأعمالهم^(٢).

فهؤلاء القوم قد (كانت لهم عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى، لكن الشيطان استهواهم، وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الشجرة المكشوفة، وهي

^١ -الاتباع أنواعه وآثاره في بيان القرآن - ج (٢)، الاتباع المذموم - ص (٥٢١).

^٢ - : الانحرافات الكبرى؛ سعيد أيوب - ص (٩٢)

غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتون من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع (١).

ولم يكن ضلالهم ناتجاً عن قصور في النظر؛ وإنما كانوا (أهل بصائر؛ أي: عقول، فلا عذر لهم في صدّهم عن السبيل، وفي هذه الجملة اقتضاء أن ضلال عاد كان ضلالاً ناشئاً عن فساد اعتقادهم، وكفرهم المتأصل فيهم والموروث عن آبائهم، وأنهم لن ينجوا من عذاب الله؛ لأنهم كانوا يستطيعون النظر في دلائل الوحداية، وصدق رسلهم) (٢).

و الشيطان لا يمل من التزيين و الوسوسة إلى العبد يريد أن يظفر منه بشي عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهَةَ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسَلِّمُ وَتَدْعُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدْعُ مَوْلَدَكَ فَتَكُونُ كَالْفَرَسِ فِي طُولِهِ؟ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَتَقْتُلُ فَتَتَزَوَّجَ أَمْرَأَتَكَ وَتَقْسِمَ مِيرَاثَكَ؟ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ضَمِنَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ إِنْ قُتِلَ أَوْ مَاتَ غَرَقًا أَوْ حَرَقًا فَأَكَلَهُ السَّبْعُ» (٣)

وفي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: "إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه"، أي: طرق هديه وصلاحه يوسوس له ليمنعه من السير فيها؛ "فقعد له بطريق

١ - في ظلال القرآن، سيد قطب - م، ص (٢٧٣٥).

٢ - التحرير والتنوير - ج (٢٠)، ص (٢٤٩)

٣ - أخرجه أحمد (١٥٩٥٨)، والنسائي ٦/ ٢١، وابن حبان (٤٥٩٣)، والبخاري في التاريخ ٤/ ٨٧، وابن أبي عاصم في الآحاد (١٠٤٣)، والطبراني (٦٥٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٢٤٦)، والمزي ١٠/ ٢٠٢، وابن الأثير ٢/ ٣٨٨، وابن قانع ١/ ٣٠٣.

الإسلام"، أي: ليمنعه من الإسلام، "فقال"، أي: الشيطان: "تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟!"، أي: ينكر عليه إسلامه مخالفاً لدين آبائه، "فعصاه"، أي: لم يسمع له ابن آدم وخالفه، فأسلم ابن آدم لله عز وجل.

ثم قعد الشيطان لابن آدم "بطريق الهجرة"؛ ليمنعه من الهجرة، فقال الشيطان: "تهاجر وتدع أرضك وسماؤك؟!"، أي: ينكر عليه الشيطان أن يهاجر، ويعظم له من أمر موطنه، ويقول له: "وإنما مثل المهاجر كمثّل الفرس في الطول"، أي: يزيد الشيطان من التغرير بابن آدم، فيصور له أن المهاجر في الغربة كمثّل الفرس المقيد، لا يعرف أحداً ولا يخالطه أحد إلا بقدر معارفه؛ فهو كالفرس في القيد لا يدور ولا يرعى إلا بقدره، بخلاف أهل البلاد في بلادهم فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم فأحدهم كالفرس المرسل، وهذا من وسوسة الشيطان وتخويفه للمؤمن؛ فيذكره بالمتاعب والمشاق، ويوزان له بين قيود الإيمان، وبين حال الكافر وما أمامه من الفسحة وعدم التقيد بأوامر أو نواه؛ ليصرفه عن طريق الإيمان، ولكن المؤمن الموفق من الله رفض كيد الشيطان "فعصاه فهاجر"، أي: لم يسمع ابن آدم للشيطان وخالفه.

ثم قعد الشيطان لابن آدم "بطريق الجهاد"؛ ليمنعه من الجهاد في سبيل الله عز وجل، فقال الشيطان: "تجاهد؛ فهو جهد النفس والمال"، أي: يقلل له من شأن الجهاد، وإنما هو إرهاب وتعب للنفس والمال، "فتقاتل فتقتل"، أي: فيكون جزاؤك في القتال القتل، "فتنكح المرأة"، أي: يتزوج زوجتك رجل غيرك، "ويقسم المال؟!"، أي: يذهب للورثة، "فعصاه فجاهد"، أي: لم يسمع له ابن

آدم وخالفه وخرج للجهاد، فقال رسول الله ﷺ: "فمن فعل ذلك"، أي: خالف الشيطان وأسلم وهاجر وجاهد، "كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة"، أي: جزاء وأجر له، "ومن قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته"، أي: كانت سببا في موته؛ كأن وقع من عليها فمات، أو وطئته، "كان حقا على الله أن يدخله الجنة"، والمراد تعميم أحوال الموت في سبيل الله تعالى، أي: سواء كان موته بالقتل، أو الغرق، أو بوقص دابته، أو غير ذلك من أسباب الموت؛ فإن الله عز وجل يدخله الجنة.

وفي الحديث: التحذير من الشيطان، وبيان أنه يترصد لابن آدم في كل طرق الخير؛ فعلى المسلم الاحتياط لنفسه والاستعانة بالله تعالى

خامسا: الإسراف في المباحات حتى تقود إلى المحرمات.

اعلم -بارك الله فيك وهداني الله وإياك الصراط المستقيم -: أن من موانع التوبة أن يسرف المرء على نفسه في المباحات حتى تقوده إلى المحرمات فتقيده وتقعده عن التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فكم رأينا أناسا كانوا صالحين انشغلوا بالمباحات حتى زلت أقدامهم في المحرمات فغرقوا في بحارها

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

قال الشوكاني في "فتح القدير" ما مختصره: والزينة ما يتزين به الناس من الملبوس، أمروا بالتزئين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف... قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أمر الله - سبحانه - عباده بالأكل والشرب، ونهاهم عن الإسراف، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرّة قاتل لنفسه، وهو من أهل النار، كما صحّ في الأحاديث الصحيحة، والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يعول - مخالف لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه، والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده، واقع في النهي القرآني، وهكذا من حرّم حلالاً، أو أحلّ حراماً، فإنه يدخل في المسرفين، ويخرج عن المقتصدين، ومن الإسراف الأكل لا لحاجة، وفي وقت شبع؛ اهـ (١)

• وقال النبي ﷺ - : ((كلوا واشربوا ولبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة))، وقال ابن عباس: "كل ما شئت، واللبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة" (٢).

• وقال النبي ﷺ - أيضاً: ((ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)) (٣).

١ - (انظر "فتح القدير" للشوكاني ٣ / ٣٠).

٢ - (أخرجه البخاري في اللباس، والنسائي في الزكاة ٢٥٥٩).

٣ - (انظر "السلسلة الصحيحة" ٢٢٦٥، و"صحيح الترغيب" ٢١٣٥ للألباني).

والقاعدة تقول: ما أدى إلى الحرام فهو حرام: الإسراف المذموم في المباحات إذا كان سبباً مؤكداً للوقوع في محذور شرعي فإنه يأخذ حكم المنع والتحريم بحسب مآلات.

❖ وإليك أثر و أمثلة ذلك:

❖ -ضعف الإرادة والسيطرة على النفس: اعتياد النفس على نيل كل ما تشتهيه من المباحات يضعف قدرتها على الصبر والتحمل، فإذا غابت المباحات أو عجز عنها المرء، قد تتطلع نفسه إلى الحرام لتلبية رغباتها.

❖ -إضاعة الأموال والوقوع في الديون: الإسراف في الشراء والاستهلاك قد يستهلك ميزانية الشخص، مما قد يدفعه لاحقاً إلى الاستدانة بفوائد ربوية، أو اللجوء إلى الكسب غير المشروع (كالرشوة أو السرقة) للحفاظ على نفس مستوى المعيشة.

❖ -التكاسل عن الطاعات: إشغال الوقت والجهد بالملذات المباحة (ككثرة النوم أو تضييع الساعات في الترفيه) يؤدي غالباً إلى التثاقل عن أداء الواجبات الدينية والمسؤوليات اليومية.

❖ -قسوة القلب: كثرة التمتع تذهب بالحس الإيماني وتجعل القلب غافلاً عن ذكر الله وعن الشعور بحاجة الآخرين وآلامهم.

لذلك، دعت الشريعة الإسلامية إلى الوسطية والاعتدال في كل شيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]

وإليك قصص واقعية من سير السلف الصالح:

📖 قصة عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله (الشهوة الشرائية) عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما قال: «رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه في يدي لحماً معلّقا، قال: «ما هذا يا جابر؟». قلت:

اشتيت لحماً، فاشتريته. فقال عمر: «كلّما اشتيت اشتريت، أما تخاف هذه الآية { أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا } [الأحقاف/ ٢٠..(١)]

📖 العبرة: خشي عمر أن يتحول تلبية كل رغبة مباحة (وهي شهوة الطعام) إلى إدمان استهلاكي يجعل الإنسان عبداً لشهواته، فلا يستطيع الصبر إذا فُقدت، أو يدفعه ذلك للتقصير في حقوق أخرى.

📖 قصة الإمام الشافعي وترك الشبع المفرط (حفظ الطاقة للعبادة) يُروى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله: "ما شبعْتُ منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طُرْحَتْهَا (تخلصت منها)".

وعندما سُئل عن السبب وهو أمر مباح (أكل الحلال حتى الشبع)، قال: "لأن الشبع يُثقل البدن، ويُقسّي القلب، ويُزيل الفطنة، ويَجلب النوم، ويُضعف صاحبه عن العبادة".(٢)

^١ - مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ص ١٧٨)

^٢ - «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص ٧٨) «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (ص ٧٨)

العبرة: الإمام الشافعي رأى أن الإسراف في مباح "الأكل" يجر مباشرة إلى محرم أو مكروه، وهو التكاسل عن الصلاة وتضييع وقت طلب العلم في النوم.

📖 **موقف الحسن البصري - رحمه الله -** من "ثقافة التأنيق المفرط" دخل شاب من أبناء الأثرياء على الإمام الحسن البصري وهو يتبختر في ثياب مصبوغة فاخرة ويمشي متبخترًا.

فنظر إليه الحسن وقال: "يا ابن أخي، إن أحدكم يسرف في مباحات دنياه حتى يفرغ قلبه من دينه، تظن أنك بثوبك هذا صرت أكرم عند الله؟"

ثم قال الشاب: يا أبا سعيد، إنما هو مالي ألبس منه ما أشاء!

فرد عليه الحسن: "إنك إن أعطيت نفسك كل ما تشتهي من الحلال اليوم، لم تجد ما تزجرها به عن الحرام غداً".

العبرة: التربية بالمنع الجزئي عن المباحات هي الحصن الذي يحمي العبد من الوقوع في الحرام؛ لأن النفس إذا لم تلجم بالحلال، جمحت في الحرام.

سادسا: الذنوب المتركمة التي تُحدث الران على القلب.

أخي المسلم -اعلم زادك الله علما وفهما - : أن من أسباب حجب التوبة تراكم الذنوب حتى يسود قلب المرء فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما اشرب من هواه إن الذنوب تعمي القلب فلا يبصر الحقائق، ويضيق من القرآن

وينفر منه، ويعمى عن هداياته، فلا يرى النور الذي فيه، قال تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦].

تراكم الذنوب وإحداث "الران" على القلب يُعدّ من أشد الموانع الباطنة وأخطر الحجب التي تحول بين العبد وبين التوبة والإنابة إلى الله تعالى؛ ذلك أن الذنب أول ما يقع يكون كالنكتة السوداء الصغيرة، فإذا أتبعه العبد بالاستغفار صُقل قلبه ونُقّي، وإذا أصرّ عليه واستمرّ المعاصي تتالت النكت السوداء حتى تغطي القلب بالكامل، فيصطبغ بالران وتُغلق منافذ الهداية فيه.

تتجلى خطورة هذا المانع وأثره المباشر في حجب التوبة في المحاور التالية:

🔷 أولاً: حقيقة "الران" والتحول التدريجي للقلب:

المفهوم الشرعي للران: الران هو الغطاء والصدأ المتراكم الذي يعلو القلب من كثرة الذنوب والآثام، كما جاء في القرآن الكريم: {كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

الإنكاس والانتكاس: يوضح النبي ﷺ هذا البيان العملي عن حذيفة -رضي الله عنه- يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكْتٌ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتٌ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا

دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا^(١) كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا،^(٢) لَا
يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ^(٣).

❦ ثانيًا: كيف يحجب "الران" التوبة عن العبد؟

❦ إِمَانَةُ الشُّعُورِ بِالذَّنْبِ (موت الحساسية الإيمانية): القلب السليم يرى الذنب الصغير كجبل يوشك أن يقع عليه، أما القلب الذي رانه الذنب فيرى الآثام كذباب مرّ على أنفه؛ إذ تبلدت مشاعره وفقد خاصية التأثر والندم الذي هو أعظم أركان التوبة.

❦ عَمَى البَصِيرَةِ وَانْعِكَاسُ الْمَوَازِينِ: إذا غشيت الران القلب، أظلمت بصيرته؛ فيصبح يرى الباطل حقًا والحق باطلاً، ويزين له الشيطان قبيح عمله، فلا يخطر بباله أصلاً أنه بحاجة إلى توبة أو استغفار.

❦ سَلَبُ تَوْفِيقِ الْإِنَابَةِ وَالْإِعْرَاضِ الْمَتَبَادِلِ: التوبة توفيق وهداية من الله تعالى، واستمرار العبد في التطلخ بالمعاصي دون بالٍ يستوجب خذلانه وإعراضه، فتصبح الإنابة ثقيلة على لسانه وقلبه، وتستحوذ عليه الغفلة حتى يداهمه الأجل.

^١ -مرباداً من الرُبْدَةِ: لَوْنٌ يَمِيلُ إِلَى الْغُبَرَةِ، وَهُوَ لَوْنٌ يَخَالِطُ سَوَادَهُ كَدَرَةٌ غَيْرُ حَسَنَةٍ.

^٢ -الكوز مجخياً: منكوساً، نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة [شرح النووي، ٢ / ٥٣١].

^٣ -مسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، برقم ١٤٤.

❦ثالثاً: درجات التغطية القلبية (من النكتة إلى الطبع)

يَبْنِي المحققون من العلماء (كابن القيم وابن جرير الطبري) أن غشاوة الذنوب تتدرج على مراتب:

النكتة: وهي الأثر الأول للذنوب، ويزول فوراً بالتوبة والاستغفار.

الران: وهو تراكم النكت حتى تغطي ظاهر القلب.

الطبع أو الختم: وهو أشدها، حيث يُغلق القلب بالكلية فلا يدخله خير ولا يخرج منه شر، قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

❦سبل جلاء الران وفتح باب التوبة:

رغم خطورة الران، فإن رحمة الله واسعة، وجلاء هذا الصداً ممكن لمن تدارك نفسه بالوسائل التالية:

❦إدامة الاستغفار والذكر: فالذكر والصلاة على النبي ﷺ من أعظم الصقائل التي تجلو عن القلوب صداً المعاصي.

❦الانكسار والتضرع بطلب الهداية: الالتجاء إلى الله بالدعاء والصياح بين يديه أن يحيي قلبه الميت.

﴿مكابدة الطاعات وقراءة القرآن بالتدبر: لأن آيات القرآن تنزل على القلوب القاسية فتليّنّها وتزيل حجبها.

﴿ترك صغائر الذنوب قبل كبائرها: لحسم مادة التراكم التي تغذي الران.

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: {كَأَلَّا بِلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]». (١)

وكذلك فتن الشبهات والشهوات إذا عرضت على القلب وتشربها فإنها تعميه عن الحق، وعن نور القرآن، فلا يقبل ما فيه من الهدى بل ينقلب قلبه فلا يقبل إلا الهوى، وينفر من الحق والهدى، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه، يَقُولُ ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكْتٌ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتٌ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيَضاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصِّفَا فَلَا تُضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ

١ - أخرجه أحمد (٣٣٣ / ١٣) ح (٧٩٥٢)، والترمذي واللفظ له (٤٣٤ / ٥) ح (٣٣٤) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح"، وابن ماجه في سننه (١٤١٨ / ٢) ح (٤٢٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٢١٠ / ٣) ح (٩٣٠)، الحاكم في مستدركه (٥٦٢ / ٢) ح (٣٩٠٨) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٧١ / ٢) ح (١٦٢٠)، وقال شعيب الأرناؤوط في تحقيق المسند (٣٣٤ / ١٣) ح (٧٩٥٢): "إسناده قوي".

أَسْوَدُ مُرَبَّادًا ^(١) كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا، ^(٢) لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ. ^(٣)

ولا شك أن للذنوب والمعاصي أثرًا كبيرًا في إفساد القلب، وضررها عظيم عليه، "وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟! ". ^(٤)

المانع السابع: العادات والتقاليد

أخي القاري الكريم اعلم -ذاك الله علما-: أن العادات والتقاليد المحالفة للشرع تُعدّ من أعتى الحجب وأقوى الموانع التي تحول بين الإنسان وبين التوبة والإنابة إلى الله تعالى؛ ذلك أنها تشكل سطوة اجتماعية ووراثية تُكبّل العقل وتُخدر الضمير، فيصبح العرف لدى صاحبها مقدماً على النص، والرضا الشعبي مقدماً على مرضاة الرب.

تتجلى خطورة العادات والتقاليد كمانع من موانع التوبة في المحاور التالية:

أولاً: تقديس الموروث وإلغاء العقل (التقليد الأعمى)

^١ -مرباداً من الرُبْدَةِ: لَوْنٌ يميل إلى الغُبَرَةِ، وهو لون يخالط سواده كدرة غير حسنة.

^٢ -الكوز مجحياً: منكوساً، نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة [شرح النووي، ٢ / ٥٣١].

^٣ -مسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب، برقم ١٤٤.

^٤ -الجواب الكافي (١ / ٩٨).

سير على خطى الآباء: الدافع الأكبر للثبات على الباطل وترك التوبة هو
الاعتزاز بالجامد من العادات، قال تعالى واصفاً حال المعرضين عن التوبة:
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ
آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]

الخشية من الخروج عن الجماعة: يرى العاصي أن ترك الذنب أو البدعة التي
استقرت في قومه يُعدّ خروجاً عن العرف أو قطيعة للنسب، فيؤثر رضا قومه
وموافقتهم على امتثال أمر الله والتوبة إليه.

❖ **ثانياً: تغيير المسميات وتزيين القبيح:** تسمية الذنب بغير اسمه: تستغل
العادات والتقاليد سلاح المصطلحات لتجريد الذنب من قبحه الشرعي؛
فيُسمى الربا "فوائد أو معاملات عرفية"، وتُسمى الحمية الجاهلية والتعصب
"شهامة ونخوة"، ويُسمى التبرج والخلطة المحرمة "واجبات اجتماعية
ومدنية"، ويُسمى الظلم في الميراث "حفاظاً على مال العائلة".

❖ **تحول الذنب إلى واجب اجتماعي:** حينما تصبح المعصية جزءاً من مراسيم
الأفراح، أو العزاء، أو المعاملات المالية، يجد المرء صعوبة بالغة في التوبة
منها؛ لأن التوبة حينئذٍ تُفسر اجتماعياً على أنها تقصير في الواجب أو قلة
مروءة!

❖ **ثالثاً: الخوف من كلام الناس واللمز الاجتماعي:**

﴿سلطة اللسان الاجتماعي: يقع التائب تحت ضغط هائل من خشية انتقاد البيئة المحيطة به، أو سخرية الأقران من استقامته، فتراه يقول في نفسه: "ماذا سيقول الناس عني إذا تركت كذا؟".

﴿تقديم خشية الخلق على خشية الخالق: هذا الخوف يُضعف إرادة التوبة ويحجبها، حيث يقدم العبد هيبة الناس وحسابات جاهه الاجتماعي على هيبة الله ومقامه، امثالاً لقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].

يقول الله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]

يقول الرازي - رحمه الله - : " لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ومما يدل عليه أيضاً من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لأنه كم حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقاً إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقاً ومعلوم أن ذلك باطل أنه تعالى بين أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه ، إنما هو

حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله { **إِلَّا قَالَ مَتَرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ** } .

والمترفون هم الذين أترفهم النعمة أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق ، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة ، فلهذا قال عليه السلام : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " (١) .

رابعاً: نموذج أوضح في التاريخ (موقف أبا طالب)

أوضح صورة تاريخية لمانع العادات والتقاليد من التوبة والإيمان هي قصة أبي طالب عم النبي ﷺ؛ فقد كان يعلم صدق النبي ﷺ وصحة دينه، ودافع عنه بكل قوته، ولما حضرته الوفاة ودعاه النبي ﷺ إلى كلمة التوبة والإيمان (لا إله إلا الله)،

كان حوله قرناء السوء ممن يغذون فيه جانب العرف الجاهلي، قائلين له:
"أترغب عن ملة عبد المطلب؟!"

فكان آخر ما قال: "هو على ملة عبد المطلب"، فمات على غير التوبة والإيمان حياءً من قومه ووفاءً لعادات آبائه!

١ - تفسير الرازي - (ج ١٣ / ص ٤٧٠)

الفصل الثالث: بواعث التوبة

فإن التوبة من أجل المقامات، وأشرف المنازل، وأوجب الواجبات على كل مكلف.

وهي الرجوع إلى الله بالإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الصادق على عدم العودة إليه، مع ردّ الحقوق إن تعلق بالخلق. وقد أمر الله بها أمرًا عامًا فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة ليست مجرد كلمة تُقال، بل هي حركة قلبية عميقة، تحول في الإرادة، وانقلاب في الوجهة من المعصية إلى الطاعة، ومن البعد إلى القرب.

ولهذا كانت تحتاج إلى بواعث قوية تحرك القلب الغافل، وتوقظ النفس النائمة، وتكسر حواجز التسويف واليأس، وتدفع العبد دفعًا صادقًا نحو باب التوبة.

فالبواعث هي الأسباب والدوافع التي تجعل التوبة مطلوبة مرغوبة، بل ضرورية في نظر العبد.

ومن دون هذه البواعث تبقى التوبة مجرد أمنية أو خاطر عابر لا يستقر في القلب ولا يظهر أثره في الجوارح.

أما إذا قويت البواعث واستحكمت، فإنها تولّد يقظة حقيقية، وندماً صادقاً، وعزماً جازماً، فيكون التائب حينئذٍ كمن وجد ضالته بعد طول يأس، أو كمن نجا من هلكة بعد أن كاد يغرق.

أولاً: تذكر الموت والقدوم إلى الله والوقوف بين يديه:

أخي المسلم: اعلم -بارك الله فيك- أن تذكر الموت هو الموقظ الأكبر للقلوب من رقدة الغفلة، والداعي الأقوى لمبادرة التوبة وعاجل الإنابة؛ ذلك أن من استعلم قرب الرحيل انقطع عنده طول الأمل، وشمر لطاعة الله قبل حلول الأجل.

تتجلى العلاقة الوثيقة بين تذكر الموت وتعجيل التوبة في الأمور التالية:

❖ أولاً: كسر طول الأمل وقمع التسويف:

قطع حبال التسويف: السبب الأكبر في تأخير التوبة هو توهم امتداد العمر. فإذا استشعر العبد أن الموت يأتي بغتة، انكسر لديه كبر التسويف وارتدع عن قول "سأتوب غداً".

الخوف من سوء الخاتمة: إدراك العبد أن المنية قد تدركه وهو على معصية يبعث في قلبه الخوف الشديد، فيسرع بالإقلاع والتطهر حتى لا يلقي الله وهو مقيم على الخطيئة.

❖ ثانياً: التزهيد في العاجلة وإحياء ندم القلب:

صغر الدنيا في العين: تذكر الفناء يقلل من قيمة الملاذ الفانية والشهوات الحرام، فيسهل على النفس ترك المعاصي والتفريط.

تحريك قوة الندم: ركن التوبة الأعظم هو الندم، ولا شيء يحرك الندم في النفس مثل استحضار لحظة مفارقة الأهل والأحباب والنزول في صدمة القبر فردًا وحيدًا.

❦ ثالثاً: الإسراع في رد المظالم والتدارك:

تصفية الحقوق: الاستعداد للموت يدفع العبد ليس فقط للتوبة فيما بينه وبين الله، بل للتوبة المتعلقة بحقوق العباد؛ فيسرع بـرد المظالم، والاستغفار لمن اغتابهم، واستصلاح ما أفسده قبل فوات الأوان. المسارعة إلى الاستغفار: جعل الاستغفار والإنابة هجيراً في كل وقت، امتثالاً للتوجيه النبوي: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أكثروا ذكر هاذم اللذات " (١).

مفاتيح عملية للاستفادة من ذكر الموت

زيارة القبور: فإنها تذكر الآخرة وترقق القلوب القاسية. شهود الجنائز وتشيعها: لمعينة المصير المحتوم والتفكير في حال الراحلين. محاسبة النفس عند النوم: استحضار أن النوم مودة صغرى، وأن الروح قد لا ترجع، فيجدد العبد توبته كل ليلة. فمن أعظم أسباب التوبة - عباد الله - تذكر الموت والقعود إلى الله والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى.

١ - أخرجه: ابن ماجه (٤٢٥٨)، والترمذي (٢٣٠٧)، والنسائي ٤/ ٤ وفي «الكبرى»، له (١٩٥٠)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

قال بعض السلف: إذا ذكرتُ القدومَ عَلَى اللَّهِ كُنْتُ أَشَدَّ اشْتِيَاقًا إِلَى الموتِ من
الظَّمآنِ الشديدِ ظمؤِه، في اليومِ الحارِّ الشديدِ حرِّه إِلَى الشرابِ الشديدِ برْدِه.

أَشْتَأقُ إِلَيْكَ يَا قَرِيبَ نَائِي شَوْقَ الظَّامِي إِلَى زُلَالِ المَائِي

تَفَانُوا جَمِيعًا فَمَا مَخْبَرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الخَبَرُ

فِيَا سَائِلِي عَنْ أَنَاسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيمَا مَضَى مَعْتَبِرُ

تَرَوْحُ وَتَعْدُوا بَنَاتِ الثَّرَى فَتَمَحُو مُحَاسِنَ تِلْكَ الصُّورِ

الموت أسرع وأقرب إلينا من شراك النعل، وما أسرع هذه الأيام، وما أسهله،
والحياة قصيرة - والله - جد قصيرة، إذا ولد الإنسان أذن في أذنه اليمنى أذان
بلا صلاة، فإذا مات الإنسان صليت عليه صلاة الجنازة بلا أذان، فكأن حياة
الإنسان قصيرة قصيرة، وكأنها كالوقت الذي بين الأذان والإقامة.

أَذَانُ الطِّفْلِ فِي المِيلَادِ دَوْمًا وَتَأْخِيرُ الصَّلَاةِ إِلَى المَمَاتِ

دَلِيلًا أَنَّ مَحْيَاهُ قَلِيلٌ كَمَا بَيْنَ الإِقَامَةِ وَالصَّلَاةِ

فهل من تائب إلى الله؟ وهل من عائد إلى رحاب الله؟ وهل من توبة صادقة؟
وهل من عودة حميدة؟

يا شيخاً كبيراً احدودب ظهره، ودنا أجله، ماذا أعددت للقاء الله؟ وماذا بقي
لك في هذه الدنيا؟

يقول سفيان الثوري: "إذا بلغ العبد ستين سنة فليشتر كفناً وليهاجر إلى الله".

ويا شاباً غره شبابه وطول الأمل، ماذا أعددت للقاء الله؟ متى تستفيق إن لم تستفيق اليوم؟ ومتى تتوب إن لم تتوب في هذه الساعات؟ ومتى تعمل إن لم تعمل في هذه اللحظات؟
يا نفس توبي قبل أن لا تستطيعي أن تتوبي واستغفري لذنوبك الرحمن غفار الذنوب

إن المنايا كالرياح عليك دائمة الهبوب

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في مخها والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لجميع من تاب من زلاته ما كان منه في الزمان الأول

يا ابن آدم أحب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان.

قال إبراهيم ابن الأدهم لرجل : إذا دعتك نفسك إلى معصية الله فاعصه..
ولا بأس عليك ولكن لي إليك خمسة شروط ...

قال الرجل : هاتها

قال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فاخترى في مكان لا يراك الله فيه..
فقال الرجل: سبحان الله كيف اختفي عنه وهو لا تخفى عليه خافيه...

قال إبراهيم: سبحان الله أما تستحي أن تعصي الله وهو يراك
فسكت الرجل ثم قال..: زدني .

فقال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فلا تعصه فوق أرضه...

فقال الرجل: سبحان الله وأين اذهب وكل ما في الكون له...

فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله وتسكن فوق أرضه؟؟

فقال الرجل: زدني

فقال إبراهيم: إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزقه...

فقال الرجل: سبحان الله وكيف أعيش وكل النعم من عنده..

فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصي الله وهو يطعمك ويسقيك ويحفظ عليك

قوتك؟؟

قال الرجل: زدني

فقال إبراهيم: فإذا عصيت الله ثم جاءتك الملائكة لتسوقك إلى النار فلا تذهب

معهم...

فقال الرجل: سبحان الله وهل لي قوة عليهم...إنما يسوقوني سوقا..

فقال إبراهيم: فإذا قرأت ذنوبك في صحيفةك فأنكر أن تكون فعلتها...

فقال الرجل: فأين الكرام الكاتبون والملائكة الحافظون؟؟ والشهود

الناطقون؟؟

ثم بكى الرجل ومضى وهو يقول أين الكرام الكاتبون والملائكة

الحافظون... والشهود الناطقون

ثانيا: قصر الأمل

أخي الحبيب: -اعلم بارك الله فيك- : أن قصر الأمل هو العلم بقرب الرحيل،

واستشعار أن النفس الحالي قد يكون الأخير؛ وهو الباعث الأعظم على

الانكفاف عن المعاصي والمبادرة بالإنابة إلى الله تعالى.

تظهر المحركات الإيمانية والسلوكية لقصر الأمل في استحثاث التوبة وتعجيلها على النحو التالي:

❖ **أولاً: اقتلاع جذور التسويف:** سقوط خديعة "غداً": التسويف هو الخاطف الأكبر لأعمار العصاة، ولا يقطعه إلا قصر الأمل؛ فالذي يعلم أنه قد لا يمسي إذا أصبح، لا يؤخر توبة الصباح إلى المساء.

إدراك فجأة الأجل: يوقن العبد أن الموت لا يستأذن، ولا يفرق بين شاب وشيخ، فينزِع فوراً عن المخالفات خيفة أن يباغته ملك الموت وهو على معصية.

❖ **ثانياً: إحياء القلب وشدة الندم:** استصغار الدنيا وزينتها: إذا قُصِر الأمل، هانت الشهوات في عين العبد، وزهد في الحرام، وسهل عليه ترك ما كان يستعصي عليه تركه من الذنوب.

الخوف من طي الصحيفة: يورث قصر الأمل خشية متصلة من لقاء الله على غير جاهزية، فيتحرك في القلب الندم الصادق الذي هو أعظم أركان التوبة.

❖ **ثالثاً: الانكماش عن المظالم والحرص على التدارك:**

المسارعة إلى الاستغفار والعمل الصالح: يدفع قصر الأمل العبد إلى اغتنام الفراغ والصحة، واستبدال السيئات بالحسنات قبل فوات الأوان.

رد الحقوق إلى أهلها: التوبة من مظالم العباد تتطلب جراءة ومبادرة، وقصر الأمل يزيل التردد في التحلل من أصحاب الحقوق والاعتذار إليهم.

أقوال المتقدمين في قصر الأمل والتوبة:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ». (١)

وقال الحسن البصري رحمه الله: «الموتُ معقودٌ بنواصيكم، والدُّنيا تُطوى من ورائكم؛ فالعَجَلُ العَجَلُ، فإنما هي أنفاسٌ لو كُبِسَتْ انقطعت أعمالكم». (٢)

عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْمُسْتَوْرِدَ، أَخَا بَنِي فَهْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ إِلَيْهِ " (٣)

رواه مسلم. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ (٤)

١ - البخاري (١١/ ٢٣٣ رقم ٦٤١٦).

٢ - [موسوعة ابن أبي الدنيا ٣/ ٣١١]

٣ - أخرجه أحمد ح ١٨٠٣٧ و مسلم ح ٢٨٥٨

٤ - أخرجه أحمد ح ٤٧٦٤ و البخاري ح ٦٤١٦

رواه البخاري. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ.» (١)

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيْتَةٍ شَائِلَةٌ بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: "أَتَرُونَ هَذِهِ هَيْئَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَرْنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا" (٢)

عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ - أَحَدِ بَنِي فِهْرِ - قَالَ: كُنْتُ فِي الرِّكْبِ الَّذِينَ وَقَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى السَّخْلَةِ الْمَيْتَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا حَتَّى أَلْقَوْهَا؟» قَالُوا: مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَالدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا» (٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ» مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ (٤)
أحوال السلف قال يزيد الرقاشي - رحمه الله - إلى متى تقول غدا افعل و بعد
غدا افعل كذا و إذا أفطرت فعلت كذا و إذا قدمت من سفري فعلت كذا

١ - أخرجه البخاري ح ٢٧٣٨ ومسلم ١٦٢٧

٢ - أخرجه الترمذي ح ٢٣٢٠ والحاكم ح ٢٣٢٠ والطبراني في الكبير ح ١٣٣٤٤ وقال الألباني (صحيح) انظر حديث رقم : ٥٢٩٢ في صحيح الجامع

٣ - أخرجه أحمد ح ١٨٠٤٢ والترمذي ح ٢٣٢١ والطبراني في الكبير ح ١٧٤٧٩

٤ - أخرجه الدارمي ح ٣٢٢ والترمذي ح ٢٣٢٢ والطبراني في الأوسط ح ٤٠٧٢ وابن أبي شيبة ح ٣٦٤٨٠ قال الألباني (حسن) انظر حديث رقم : ١٦٠٩ في صحيح الجامع .

عن عبيد الله بن شميطة، قال: سمعت أبي يقول: «أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم ؟ ، أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ؟ ، إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك . أبالصحة تغترون؟ ، أم بطول العافية تمرحون ؟ ، أم للموت تأمنون ؟ ، أم على ملك الموت تجترئون ؟ ، إن ملك الموت إذا جاء لم يمنعك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك . أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفریط؟ ثم يقول: رحم الله عبدا عمل لساعة الموت. رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت. رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت» (١)

قال أبو علقمة المدني، قال: كان صفوان بن سليم لا يكاد يخرج من مسجد النبي ﷺ فإذا أراد أن يخرج بكى وقال: «أخاف أن لا أعود إليه» (٢)

قال أبو زكريا: قالت امرأة حبيب: كان يقول: «إن مت في اليوم فأرسلني إلى فلان يغسلني، وافعلي كذا، واصنعي كذا» . فقيل لامرأته: أراى رؤيا ؟

قالت: هذا يقوله في كل يوم (٣)

عن القعقاع بن حكيم: «قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحبيت تأخير شيء عن شيء» (٤)

١ - قصر الأمل - (ج ١ / ص ٦٥)

٢ - قصر الأمل - (ص ٦٠)

٣ - قصر الأمل - (ص ٦٢)

٤ - قصر الأمل - (ص ٧٦)

عن سفيان الثوري، يقول: رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول: «أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، لو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء، ولا لأحد عندي شيء» (١)

ثالثا: تدبّر عواقب الذنوب

أخي المسلم - اعلم زادك الله علما وفهما - : أن تأمل عواقب الذنوب وآثارها السيئة في الدنيا والآخرة هو أحد أعظم البواعث التي تستحث العقل والقلب للانكفاف عن المعصية والمبادرة بالتوبة النصوح. فإن من عرف شؤم الخطيئة وما تجلبه من شرور، هان عليه ترك الشهوة العاجلة خوفاً من الفتنة والردى. ويقول ابن الجوزي^١: الحذر الحذر من المعاصي فإنها سيئة العواقب، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها، لأنه عند التذاذذ يقف بإزائه علمه بتحريمها وحذره من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه الناهي وهو الله فيتغنص عيشه في حال التذاذذ فإن غلبه سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ثم خزي دائم وندم ملازم وبكاء متواصل وأسف على ما كان مع طول الزمان حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذار

١ - قصر الأمل - (ص ٧٧)

العتاب فأف للذنوب ما أقيح آثارها وأساء أخبارها، ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة " (١)

وقد تجلت آثار الذنوب وعواقبها في القرآن والسنة وسير الصالحين على أربعة محاور أساسية:

❖ أولاً: وحشة القلم وحرمان الطاعة:

ظلمة القلب: الذنب يورث القلب ظلمة يجدها العبد صريحة في نفسه، ووحشة بينه وبين الله، وبينه وبين الصالحين من عباده.

❖ ثانياً حرمان التوفيق: الخطيئة تمنع العبد من قيام الليل، وتدبر القرآن، وعمارة الأوقات بالطاعات؛ فالذنوب قيد يغل صاحبها عن الخيرات.

❖ ثالثاً: سلب النعم وحلول النقم: زوال العافية والبركة: قال تعالى: ﴿وَمَا

أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ما زالت عن عبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نعمة إلا بخطيئة.

ضيق العيش: الذنوب تسبب محق بركة الرزق والعمر، وتعسير الأمور على العبد حتى يجد السداد مغلقاً في وجهه.

❖ رابعاً: الران وشؤم الخاتمة:

تراكم النكت السوداء: استمرار المعاصي دون استغفار يغطي القلب بـ "الران"، فيعمى عن معرفة الحق ورؤية القبيح قبيحاً.

الخوف من سوء العاقبة: العبد الذي يصر على الذنب يخاف عليه أن يخذل عند الموت، فيحول الذنب بينه وبين النطق بالشهادة عند خروج الروح.

(١) - موارد الظمان لدروس الزمان (٥ / ٣٣)

تأملات من كلام المحققين

قال ابن القيم رحمه الله: «وللذنوب من الآثار القبيحة المذمومة، الضارة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله... فمنها: حرمان العلم، وحرمان الرزق، ووحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله». وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق دابتي وامرأتي». (١)

شرارات الذنوب نيران محرقة... وبوائق مهلكة!
شرارها تحت الرماد كامن... ونيرانها إن بدت أحرقت الأماكن!
فيا لغرور من غفل عن عواقبها الوخيمة... ويا لضلال من جهل أضرارها
الجسيمة!

لذتها العاجلة ألهمت المذنبين عن التدبر... وبريقها الكاذب خدع من لا يتفكر!

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طاري

وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي خشية الباري

أيها المذنب! هل تفكرت في عواقب الذنب؟!

نعم... إن للذنوب عواقب وخيمة... فيا من ركبت الذنب هل تذكرت ذلك..

ووقفت قليلاً مراجعاً لنفسك؟!

قال أبو سليمان الداراني: «من صَفَّى صُفْيًى له، ومن كَدَّر كُدَّرَ عليه، ومن أحسن

في ليله؛ كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره؛

أيها المذنب! أما تذكرت بطش من عصيته؟!

^١ - الداء والدواء ط المجمع (١/ ٢١٢)

عجباً لك أيها المذنب! لو تفكرت في بطش من عصيته؛ لردك ذلك عن غيك
... ولعلمت أنك تعصي ذا البطش الشديد .. ومن لا يعذب عذابه أحد!
كان عمر بن عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك، فأصابتهم السماء
برعد وبرق وظلمة وريح شديدة، حتى فزعوا لذلك، وجعل عمل بن عبد العزيز
يضحك! فقال له سليمان: ما ضحكك يا عمر؟! أما ترى ما نحن فيه؟!
قال له: يا أمير المؤمنين هذا آثار رحمته فيه شدائد كما ترى، فكيف بآثار سخطه
وعذابه؟!!

فإن العبد إذا علم أن المعاصي قبيحة العواقب سيئة المنتهى، وأن الجزاء
بالمرصاد دعاه ذلك إلى ترك الذنوب بداية، والتوبة إلى الله إن كان اقترف شيئاً
منها .

فإن المعاصي تفوت على العبد من النعيم والسعادة ما لا يعلمه إلا الله .
من فاته رفقة المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان فاته حسن دفاع الله عن
المؤمنين فان الله يدافع عن الذين آمنوا قال - تعالى - ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] وفاته كل خير رتبه الله في
كتابه على الإيمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها
فمنها الأجر العظيم { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ
لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)

[النساء/ ١٤٦]

ومنها استغفار حملة العرش لهم { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) [غافر / ٧] }

ومنها موالات الله لهم ولا يذل من والاه الله قال الله تعالى { لِلَّهِ وَلِيُّ الَّذِينَ

آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [البقرة / ٢٥٧] }

ومنها أمره ملائكته بتبيتهم { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) [الأنفال / ١٢] }

ومنها إن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم

ومنها العزة { وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) }

{ [المنافقون / ٧، ٨] }

ومنها معية الله لأهل الإيمان { وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) [الأنفال / ١٩] }

ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) [المجادلة / ١١] }

ومنها: أعطاهم كفلين من رحمته وأعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم

ومنها: الود الذي يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم يحبهم إلى ملائكته وأنبيائه

وعباد الصالحين

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف { فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) [الأنعام / ٤٨] }

ومنها : أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة ومنها أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) [فصلت / ٤٤] } والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرج من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين فان استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين علي قلبه فيخرجه عن الإسلام بالكلية ومن هنا أشتد خوف السلف كما قال بعضهم أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر (١)

فالمعاصي يريد الكفر قال ابن القيم - رحمه الله - ومن عقوباتها. يعني الذنوب والمعاصي. أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومياعده، إلى أن قال: هذا وثم أمر أخوف من ذلك أدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثير من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم: قل لا إله إلا الله، فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها.

وقيل لآخر. قل لا إله إلا الله فقال " شاه رخ " اسم لأحجار الشطرنج. غلبتك ثم قضي.

وقيل لآخر. قل: لا آله إلا الله فقال:

١ - الداء و الدواء ص ٩٦-٩٨

يا رب قائلة يوما وقد لغبت كيف الطريق إلى حمام منجباب.

وقيل لآخر. قل: لا إله إلا الله. فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تاتنا حتى مات.
وقيل لآخر. ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبته؛
وقيل لآخر. ذلك، فقال: ما يغني عني وما أعرف أنني صليت لله صلاة ولم
يقلها.

وقيل لآخر. ذلك، فقال: أنا كافر بما تقول ولم يلقها وقضي.
وقيل لآخر. ذلك، فقال: أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها.^١
وتلك هي سنة الله أن من عاش على شيء مات عليه يقول الأمام الذهبي -
رحمه الله - ما من ميت يموت إلا مثل له جلساؤه الذين كان يجالسهم ،
فاحتضر رجل ممن كان يلعب الشطرنج ف قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال :
شاهك ثم مات ، فغلب على لسانه ما كان يعتاده حال حياته في اللعب ، فقال
عوض كلمة التوحيد شاهك وهذا كما جاء في إنسان آخر ممن كان يجالس
شراب الخمر أنه حين حضرة الموت فجاءة إنسان يلقيه الشهادة فقال له :
أشرب اسقيني ثم مات ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم وهذا كما جاء في
حديث مروي " يموت كل إنسان على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه "
(٢)

^١ - الداء والدواء ص ١٤١ / ١٤٣.

^٢ - الكبائر للذهبي ٧٦-٧٧ ، والحديث " روي مسلم بلفظ آخر " يبعث كل عبد علي ما مات عليه.

رابعاً: الدعاء

أخي المسلم اعلم -بارك الله فيك-: أن الدعاء هو التبرؤ من الحول والقوة، والالتجاء إلى من بيده مقاليد القلوب وصلاح الأحوال. وهو من أعظم بواعث التوبة وأدق دواعيها؛ لأن العبد مهما بلغت قسوته أو استحكمت غفلته، فإن انكساره بين يدي الله ودعائه بالتوفيق للرجوع يفتح له أبواب الإنابة التي أغلقها المعاصي.

تتجلى قيمة الدعاء كباعث ومحرك للتوبة في المحاور التالية:

أولاً: استمداد التوفيق والهدى من الله:

التوبة هداية لا تُنال إلا بإذنه: القلب بيد الرحمن يقبله كيف يشاء، ولن يستطيع العبد أن يتوب إلا إذا أذن الله له ووفقه. فالدعاء هو السلم الموصل لطلب هذا التوفيق.

عن عبد الله بن عمرو: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل كقلب واحد، يصرف كيف يشاء". ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم مصرف القلوب، اصرف قلوبنا إلى طاعتك" (١).

١ - «مسند أحمد» (١١ / ١٣٠ ط الرسالة) وأخرجه مسلم (٢٦٥٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٢٢) و (٢٣١)، وابن حبان (٩٠٢)، والآجري في «الشریعة» ص ٣١٦.

النجاة من الخذلان: العبد المحروم هو من يكل نفسه إلى قدرتها وشحها، أما يد الدعاء المرفوعة فتستجلب العناية الإلهية لانتشال النفس من الحرام.

❖ ثانياً: كسر العجب واستشعار الضعف والافتقار:

الإقرار بالضعف البشرية: حين يدعو العبد ربّه أن يرزقه التوبة، فهو يعترف بعجزه عن مداواة نفسه وأهوائه، وهذا الانكسار هو جوهر العبودية وداعي الرحمة.

فَقِيرًا جِئْتُ بِأَبْكَ يَا إِلَهِي وَلَسْتُ إِلَى عِبَادِكَ بِالْفَقِيرِ
غَنِيًّا عَنْهُمْ بَيِّقِينَ قَلْبِي وَأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الْفَضْلِ الْكَبِيرِ
إِلَهِي مَا سَأَلْتُ سِوَاكَ عَوْنًا فَحَسْبِيَ الْعَوْنُ مِنْ رَبِّ قَدِيرِ
إِلَهِي مَا سَأَلْتُ سِوَاكَ عَفْوَاً فَحَسْبِيَ الْعَفْوَ مِنْ رَبِّ غَفُورِ
إِلَهِي مَا سَأَلْتُ سِوَاكَ هَدْيًا فَحَسْبِيَ الْهَدْيُ مِنْ رَبِّ بَصِيرِ
إِذَا لَمْ أَسْتَعِنْ بِكَ يَا إِلَهِي فَمَنْ عَوْنِي سِوَاكَ وَمَنْ مُجِيرِي

إذابة قسوة القلب: مناجاة الله بالدعاء ترقق الحجب الصلبة التي بنتها الذنوب، فتنزل قطرات الندم على القلب الجاف ليتهيأ للإجابة.

❖ ثالثاً: الاقتداء ببيئة الأنبياء والصالحين:

دعاء الأنبياء بالإجابة: كان من دعاء نبي الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:
﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] واستغفر آدم وزوجه ربهما:
﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف: ٢٣]

دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ الْمَأْثُورُ: كَانَ ﷺ كَثِيرًا مَا يَدْعُو: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، وَيَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

واعلموا أن الدعاء من أعظم الأسباب التي ينال بها الخير ويتقى به المكروه في الدنيا والأخرى، فقال - جل ذكره - في تنزيله وذكره: **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** [البقرة: ١٨٦]. وقال تعالى: **وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** [غافر: ٦٠]. وقال - سبحانه -: **هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** [غافر: ٦٥].

وعلى التائب أن يجتهد في الدعاء ويسأل الله تعالى الثابت على الهداية و الصراط المستقيم وقد كان إمام المرسلين الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر يدعو الله أن يثبت قلبه على طاعته شهر بن حوشب قال قلت لأم سلمة يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك قالت كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت فقلت يا رسول الله ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ فتلا معاذ { **ربنا لا تزعج قلوبنا بعد إذ هديتنا** } (١) .

١ - قال الألباني في " السلسلة الصحيحة " ٥ / ١٢٦ : أخرجه الترمذي (٣٥١٧) وابن أبي شيبة في " الإيمان " (رقم ٥٦ -) وأحمد (٣٠٢ ، ٣١٥) أخرجه أحمد (٩١ / ٦) أخرجه ابن أبي شيبة (رقم ٥٧) . أخرجه ابن ماجه (١ / ٧٧) وأحمد (٤ / ١٨٢) . وإسناده صحيح.

خامسا: أصدق النية وأخلص التوبة

التوبة النصوح التي يقبلها الله تعالى لا تتم بمجرد الكلام أو الندم الظاهري، بل لا بد أن تكون خالصة لله وحده، خالية من الرياء أو طلب مصلحة دنيوية أو خوف من الناس.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦].

فإن العبد إذا أخلص لربه وصدق في طلب التوبة أعانه الله وأمده بالقوة، وصرف عنه الآفات التي تعترض طريقه وتصدده عن التوبة.... ومن لم يكن مخلصاً لله استولت على قلبه الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام: **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** [يوسف: ٢٤].

وإذا أردنا أن ضرب مثالا رائع في التوبة فلنأخذ حديث الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك وكيف أنهم اخلصوا في توبتهم وتضرعوا إلى الله تعالى { **وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } (١١٨) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** (١١٩) [التوبة/ ١١٨، ١١٩] { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } .
أي: { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

{ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقا خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: **{ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ }** الآية. (١)

لماذا الإخلاص باعث أساسي؟

- لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له. قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» (٢)
- التوبة بغير إخلاص تتحول إلى مجرد عادة أو تظاهر، فلا تمحو الذنب ولا ترفع صاحبه.
- الإخلاص يجعل التوبة «نصوحاً»، أي صادقة خالصة تنصح صاحبها وتصلحه باطناً وظاهراً.
- وأخيراً: أيها المذنب! إليك هذه النماذج لأناس اشتهروا بفعل الطاعات ... ومع هذا كانوا يذكرون الذنب وإن قل!
- * بكى الحسن البصري - رحمه الله - : ذات ليلة حتى أبكى أهله! فقل:
- «فكرت في نفسي، فقلت: وما يدريك يا حسن لعلك قد أذنبت ذنباً، مقتك الله عليه مقتاً، لا يريد مراجعتك أبداً»!

١ - تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٣٥٤)

٢ - البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧).

* وقال ابن سيرين - رحمه الله -: «إني لأعرف الذنب الذي حمل عليّ الدّين، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس!»!

قال أبو سليمان الدارني - رحمه الله -: «قلت ذنوبهم فعلموا من أين يؤتون، وكثرت ذنوبي وذنوبك فلا ندري من أين نؤتى!»!

* ودخلوا على كرز بن وبرة، وهو يبكي، فقال: «إن الباب لمجاف، وإن الستار حي، وما دخل علي أحد، وقد عجزت عن جزئي، وما أظنه إلا بذنب!»!

أيها المذنب! تذكر عقاب من عصيته! تذكر عقاب ذي البطش الشديد! ولا تغرنك نعمة أنت فيها ... فإن الله تعالى يمهل ... ولا يفوته أحد ... فتذكر عاقبة الذنوب ... فتب إلى الله تعالى ... وارجع عن قريب ... قبل نزول العقاب والوعيد!

سادسا

امتلاء القلب من محبة الله - عز وجل :-

أخي الحبيب - اعلم علمني الله وإياك - أن محبة الله هي المحرك الأعظم للقلوب، والسائق الأصدق للنفوس نحو التوبة والإنابة؛ فإن العبد إذا امتلأ قلبه بمحبة ربه، لم تعد التوبة لديه مجرد فرار من العقاب، بل تصبح طيراناً بالشوق إلى المحبوب، واستحياءً من كدر الخطيئة أن يقطع صلتهم به.

لماذا تكون المحبة باعثاً قوياً للتوبة؟

- المحب لا يحب أن يسخط محبوبه، بل يسعى في كل ما يرضيه.
- من عرف الله بأسمائه وصفاته، وأدرك نعمه وفضله، امتلأ قلبه محبةً، فصار الذنب ثقيلاً على نفسه.

• المحبة تجمع بين الخوف والرجاء: خوف من فوات رضاه، ورجاء في قربهِ ومغفرته.

تتضح الآثار العظيمة لمحبة الله في استحثاث التوبة وترك الذنوب من خلال المحاور التالية:

❖ **أولاً: انكسار شهوة المعصية وإيثار مرضاة المحبوب:**

سقوط جاذبية الحرام: المحبة الصادقة تورث النفس لذةً أضعاف لذة الشهوة العاجلة؛ فإذا تراحمت الشهوات في قلب المحب، قدم مرضاة الله على هواه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

❖ **طاعة المحبوب طبيعة:** المحب يجد في ترك الذنب راحة وفي الطاعة سروراً، كما قيل:

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

❖ **ثانياً: سرعة الإنابة وعظم الندم:**

❖ **خشية الانقطاع والبعد:** أعظم ما يخافه المحب ليس مجرد العذاب، بل وحشة الحجاب بينه وبين حبيبه. فالذنوب عند المحب جرحٌ في جدار الوصل، فيسارع بالتوبة ليجلو ذلك الجرح.

❖ **حرارة الندم:** التوبة الصادرة عن المحبة تكون أشد إخلاصاً وعمقاً؛ لأن المحب يستحي أن يبادل العطايا والإحسان بالإساءة والعصيان.

❖ **ثالثاً: الفرح بالتوبة وتحقيق محبة الله المقابلة**

الفوز بمحبة الله: التائب المحب يعلم أن الله يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فيدفعه الشوق لنيل هذه

المحبة الشريفة إلى المبادرة وكثرة الاستغفار.

انقلاب السيئات إلى حسنات: المحبة الصادقة تجعل العبد يتبع السيئة

الحسنة لتدمحها، فتتحول الذنوب بالتوبة النصوح المتأسسة على الحب إلى

دوافع لرفعة الدرجات.

فالمحبة أعظم محركات القلوب؛ فهي الباعث الأول للأفعال والتروك

وما أتى من استئذٍ واستعبد لغير الله بمثل ما أتى من باب المحبة؛ فالقلب إذا

خلا من محبة الله تناوشته الأخطار، وتسلمت عليه سائر الرغائب

.والمحوبات، فشئتته، وفرقته، وذهبت به كل مذهب

فإذا امتلأ القلب من محبة الله - بسبب العلوم النافعة والأعمال الصالحة - كمل

أنسه، وطاب نعيمه، وسلم من التعلق بسائر الشهوات، وهان عليه فعل سائر

القربات؛ فمن المتقرر أن في القلب فقراً ذاتياً، وجوعة، وشعثاً، وتفرقاً ولا

يغني هذا القلب، ولا يلم شعثه، ولا يسد خلته إلا عبادة الله، ومحبته فأجدر

بمن يريد الإقبال على الله، والإنابة إليه أن يملأ قلبه من محبة الله؛ ففي ذلك

سروره، ونعيمه، وأنسه، وفلاحه؛ فمحبة الله - عز وجل - أقوى الأسباب في

الصبر عن مخالفته؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان المحبة

في القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية

والمخالفة من ضعف المحبة؛ فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرفع

جوارحه، وعلامة صدق هذه المحبة شهود هذا المراقب، ودوائمه.

كيف تقوى محبة الله فتدفع إلى التوبة؟

- ١- معرفة الله معرفة صحيحة (من خلال أسمائه وصفاته وآياته).
 - ٢- تدبر القرآن والتفكر في نعم الله الظاهرة والباطنة.
 - ٣- الإكثار من ذكره وشكره.
 - ٤- صحبة الصالحين الذين يعينون على طاعة الله.
 - ٥- تذكر نعم الله عليك، وكيف أنه يسترک ويعافيك رغم معصيتك.
- فالمحبة الصادقة تجعل التوبة سهلة محبوبة، لا ثقيلة متكلفة. وكلما قوي حب الله في القلب، ضعفت شهوات المعصية، وسهل الإقلاع والثبات

سابعاً: المجاهدة

أخي القارئ الكريم - اعلم بارك الله فيك - من أعظم ما يُعين العبد على تحقيق التوبة الصادقة، والثبات عليها بعد حصولها: المجاهدة.

والمجاهدة هنا هي مجاهدة النفس والهوى والشيطان، ومغالبة الرغبات التي تدعو إلى العودة إلى الذنب، والصبر على مرارة الترك، والمصابرة على الطاعة حتى تستقر التوبة في القلب وتصير عادة جديدة.

لماذا كانت المجاهدة من أعظم بواعث التوبة والثبات عليها؟

- ١- لأن التوبة ليست لحظة ندم عابرة، بل هي حرب مستمرة بين العبد وبين نفسه الأمارة بالسوء. فمن لم يجاهد نفسه ضعفت توبته وانهارت عند أول فتنة.
- ٢- النفس لا تترك عاداتها القديمة بسهولة، والشيطان لا ييأس من إعادة العبد إلى ذنبه. فلا ينجو التائب إلا بالمجاهدة المستمرة.

٣-المجاهدة هي التي تحوّل التوبة من مجرد نية إلى واقع عملي ثابت، وهي التي ترفع العبد من درجة التائب إلى درجة الثابت المستقيم.

شواهد من الكتاب والسنة وكلام العلماء

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فجعل المجاهدة سبباً للهداية والتثبيت.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة، وهي كلها صور من المجاهدة.

وقال النبي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وكان السلف رحمهم الله يرون أن التوبة الحقيقية لا تتم إلا بالمجاهدة.

قال الحسن البصري رحمه الله: «التوبة أن تنسى الذنب كما تنسى اللذة، وأن تجاهد نفسك حتى لا تعود إليه».

قال ابن القيم -رحمه الله- : قيل: النفس لها ثلاثة أحوال: الأمر بالذنب، ثم اللوم عليه والندم منه، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه، وهذه الحال أعلى أحوالها، وأرفعها وهي التي يشمر إليها المجاهد، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميمه إلى درجة الطمأنينة إلى الله، فهو بمنزلة راكب القفار، والمهامه والأهوال ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به، والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفا وقائما، وراكعا وساجدا، ليس له التفات

إلى غيره، فهذا مشغول بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكل له أجر، ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بون.^(١)

كيف يحقق العبد المجاهدة عملياً؟

- ١- يجاهد نفسه عند أول خاطر بالذنب، فيقطعه قبل أن يقوى.
- ٢- يصبر على مرارة ترك العادة القديمة، ويعلم أن الصعوبة في البداية ثم تسهل.
- ٣- يلزم نفسه بالطاعات ولو مع الكسل، حتى تتعود عليها.
- ٤- يستعين بالله كثيراً، ويكثر من الدعاء: «اللهم أعني على نفسي، وثبني على طاعتك».

- ٥- يحاسب نفسه كل يوم: أين نجحت في المجاهدة؟ وأين ضعفت؟ بهذا تكون التوبة راسخة، والثبات عليها ممكناً، والسير إلى الله مستمراً

شمعة وعفيف

يقول النبي ﷺ " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله " ^(٢)

هذا القول من النبي ﷺ يصدق بكل المعايير على بطل قصتنا و عفيف روايتنا، فقد تربى هذا الشاب على معاني الصلاح و الاستقامة منذ نعومة أظفاره و ذلك بفضل الله أولاً ثم تربية والديه له التربية الطيبة، ونشأ الشاب في عبادة الله و كبر حتى أصبح من الضروري أن يتعد عن هذا الكنف الطيب حيث استكمال دراسته و سافر الفتى بعيداً عن والديه و استقر في سكن صغير أحبه أهل الحي الذي يسكنه و فرحوا بقربه فكان مثلاً للأخلاق الفاضلة ، ومما زاد من

^١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٣٦)

^(٢) - أخرجه أحمد (٤٣٩/٢ ، رقم ٩٦٦٣) ، والبخاري (٢٣٤/١ ، رقم ٦٢٩) ، ومسلم (٧١٥/٢ ، رقم ١٠٣١)

حبه في نفوسهم خدمته لهم و طيب معشره ، و كأنه يريد الخير الذي يتحدث عنه النبي ﷺ " خير الناس أنفعهم للناس " و كثيرا ما يتحدث الناس عنه مدحا و ثناء على أخلاقه و صفاته الحسنة ، و كان في الحي فتاة مراهقة جميلة تستمع إلى أحاديث الناس عنه فأجبت به وباتت و تسترق النظرات إليه و تتحين الفرص للتمتع بمشاهدته و تتمنى أن يجلس معها تحدثه و تنظر إليه عن قرب ، وأخذت الفتاة تخطط لكي ترى الفتى و لكي تكشف له عما تكنه في صدرها و في يوم من الأيام حين كان الفتى يسير في الطريق بالقرب من بيت الفتاة نادى عليه فنظر إليها ثم أنزل نظره ، ثم دعته إلى الدخول لدارها قائلة له : إن لدينا أشياء لا نستطيع حملها فها ساعدتنا ؟

و لأن الفتى معروف بحبه للخير و حرصه على مساعدة الناس لم يمانع و لكنه قال لها : أخبري من في البيت أنني قادم و توارى قليلا ، دخل الفتى وحمل ما أشارت له عليه و خرج بكل سرعة ، فتحسرت الفتاة على أنه لم يمكث كثيرا بالقرب منها ، هذه الرؤية العابرة لم تشبع ما في الفتاة فكانت تريد أكثر من ذلك ، وفي مساء بارد و السماء تمطر بغزارة و الشاب جالس في منزلة يردد " اللهم أغثنا " و هو يجلس بالقرب من شمعة يتصفح كتابا و إذا بالباب يطرق بشدة فينصت الشاب و إذا بالطرقات تزداد فيذهب الفتى و هو متعجب : من عساه يكون هذا الزائر في الليل الممطر ؟

و فتح الباب و إذا بالفتاة نفسها تقذف بنفسها على الأرض تحت الفتى و هو لا يدرك ما الأمر إلا أن الفتاة تحدثت بعد لحظات و قالت : جئت إليك لكي أحتمي في دارك من البرد و المطر ، ، ولا زالت الفتاة على الأرض ، و قد هال

الفتى ما شاهد من جمالها و هي ملقاة على الأرض ، و لكنه تذكر خطورة موقفه و هذه الفتنة العظيمة التي يعيشها ، و زادت ضربات قلبه بسرعة ، و اشتد شهيقه و زفيره فالتفت الشاب و إذا به يشاهد شمعة التي يستضيء بها فتوجه بكل سرعة عليها و وضع أصابعه عليها و هو لا يحس ورائحة شواء لحمه تفوح ، و الفتاة تنظر إليه و هي في أقصى حالات الهلع مما يشاهده و بعد فترة من الزمن صرخ الفتى من حرارة النار ، و ركض خارج البيت و ترك الفتاة ، في داره و بعد أن انقضى أكثر الليل و هو خارج البيت منزله عاد فلم يجد الفتاة في داره فحمد الله على نجاته من هذا الموقف و هو يقول في نفسه : فإن لم أستطع الصبر على حرارة شمعة صغيره فكيف أصبر على نر و قودها الناس و الحجارة ؟!!! لا أستطيع حين خرجت الفتاة إلى بيت أهلها ازداد حب الفتى في نفسها وقد علمت أنه لا يريد لها في الحرام فكيف الوصول إليه لا بد أن أتوجه لا بد.

تحدثت الفتاة لوالدها عن الشاب و أنها تريد الزواج منه و لم يكن الوالد يتمنى أكثر من أن يزوج ابنته من هذا الفتى الصالح، فعلا في الصباح توجه الأب إلى الفتى الصالح و قال: يا بني: إنني أريد أن أزوجك ابنتي فوافق و حينها تذكر الشاب أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه فحين ترك الحرام خوفا من الله هياه الله إليه في الحلال .

ثامنا: الاشتغال بما ينفع، وتجنب الوحدة والفراغ

من أعظم ما يُعين العبد على الثبات على التوبة، ويحميه من العودة إلى الذنب: الاشتغال بما ينفع، وتجنب الوحدة والفراغ.

فالنفس إن لم تُشغل بالخير شغلت صاحبها بالشر.

والفراغ والوحدة من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على التائب، فيوسوس له، ويذكره بلذة المعصية القديمة، ويُضعف عزيمته حتى ينتكس.

لماذا كان الاشتغال النافع وتجنب الفراغ باعثاً قوياً على التوبة؟

١- لأن القلب إذا خلا من الذكر والعمل الصالح امتلأ بالوساوس والخواطر السيئة.

٢- الوحدة والفراغ يفتحان باب التفكير في الذنوب الماضية، فيعود الحنين إليها، وتضعف التوبة.

٣- أما الاشتغال بما ينفع (من عبادة، أو علم، أو عمل صالح، أو خدمة للناس) فإنه يملأ الوقت والقلب بما يقرب من الله، ويطرد الغفلة، ويقوي الإرادة.

شواهد من الكتاب والسنة وكلام العلماء

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨]

فأمر النبي ﷺ أن ينصب نفسه في العبادة إذا فرغ من أمره، حتى لا يبقى فراغ يستغله الشيطان.

وقال النبي ﷺ: عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: "نعمتان مغبونٌ

فيهما كثير من الناس، الفراغ والصحة". (١)

فبيّن أن الفراغ نعمة يغبن فيها كثير من الناس، لأنهم لا يستغلونها في طاعة الله.

وكان السلف رحمهم الله يكرهون الفراغ أشد الكره.

١ - البخاري (١١/ ٢٢٩ رقم ٦٤١٢).

وأصل هذا الضياع والشتات كله وأسه إنما هو الفراغ، وترك النفس بلا عمل..
فالنفس الفارغة العاطلة عن الخير ينشغل صاحبها بالباطل ولا بد، فلا يزال
يخرج من باب شر ويلج في غيره حتى يضيع عمره وينقضي وقته، وينفرط أمره.
كما يقول ابن القيم -رحمه الله-: "من الفراغ تأتي المفسد، وتتوالى المعاصي
على العبد في سلسلة مدمرة، تُضعِف الإيمان في القلب وتبعده عن مولاه، فمن
فرغ من عمل جاد مثمر فلا بد وأن يشتغل بما يضره ولا ينفعه، وقد قال الشافعي
رحمه الله: نفسك إن لم تشغلها بالحق؛ وإلا شغلتك بالباطل". اهـ. (١)

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة
ويقول المناوي -رحمه الله-: "اعلم أنه من الفراغ تكون الصبوة، ومن أمضى
يومه في غير حقّ قضاه أو فرض أدّاه، أو مجد أثّله، أو حمد حصّله، أو خير
أسّسه أو علم اقتبسه؛ فقد عق يومه، لقد هاج الفراغ عليك شغلاً... وأسباب
البلاء من الفراغ". (٢)

ولهذا كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "إني لأبغض الرجل أن أراه فارغاً،
ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا عمل الآخرة" (٣)
يقول ابن القيم رحمه الله: "فهى النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل،
وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله عز وجل سكنه محبة المخلوقين ولا بد، وهو

١ - "الجواب الكافي" ١٠٩

٢ - فيض القدير ٣٧٥/٦

٣ - [حلية الأولياء: ١/١٣٠].

اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو وما هو عليك ولا بد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين" (١)

كيف يحقق العبد هذا الباعث عملياً؟

يضع لنفسه برنامجاً يومياً واضحاً: أوقات للقرآن، والذكر، والصلاة، والعلم، والعمل.

يتجنب الجلوس وحده بلا شغل، خاصة في الأوقات التي كان يضعف فيها سابقاً.

يستبدل أوقات الفراغ القديمة بأعمال صالحة أو نافعة (قراءة، رياضة مباحة، خدمة الأهل، تعلم مهارة...).

يحرص على مجالسة الصالحين، لأن صحبتهم تملأ الوقت بالخير وتطرد الوحدة المفسدة.

إذا وجد نفسه فارغاً فليقم فيصلي ركعتين، أو يقرأ شيئاً من القرآن، أو يذكر الله، حتى لا يجد الشيطان ثغرة.

بهذا يحفظ التائب توبته، ويقطع الطريق على العودة إلى الذنب، ويحوّل وقته إلى رصيد له يوم القيامة.

قال ابن القيم رحمه الله: من أعظم الأشياء ضرراً على العبد فراغه، فإن النفس لا تقعد فارغة؛ بل إن لم يُشغلها بما ينفعها، شغلته بما يضره. (٢)

١ - [الوابل الصيب ١/١١١]..

٢ - [طريق الهجرتين (٢٨١)]

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: "إن الله خلق الأيدي لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمس في المعصية أعمالاً.. فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك في المعصية".

وما عرف زمان فتحت فيه الأبواب لضياح الأعمار وقتل الأوقات مثل هذا الزمان؛ حيث فتحت أبواب الهوايات والأهواء على مصاريعها، فقنوات الرياضة لمحبي الرياضة، وقنوات الأفلام والمسلسلات لعاشقي هذا الفن بكل أنواعها العربية والأجنبية والتركية والمكسيكية، والألعاب لهواة الألعاب الإلكترونية والسوني والبلاي ستيشن لجميع الأعمار بحر لا ساحل له، وقنوات الخلاصات والقذارات لضعفاء النفوس وقليلي الدين وعديمي المروءة والخلق هي الأكثر والأشهر.. ومن لا رغبة له في كل هذا فهناك النت ومواقع التواصل الاجتماعي والسوشيال ميديا بمنصاتها المختلفة والتي تحتاج إلى أعمار وأعمار لمتابعتها، فهي أوقات تنفق، وأعمار تسرق، وأزمة تنتهب من بين أيدي أصحابها الذين يصدق فيهم قول الشاطبي رحمه الله:

فيا ضيعة الأعمار تمشي سهلاً..

إذا كان رأس المال عمرك فاحترز عليه من الإنفاق في غير واجب

تاسعا: البعد عن المثيرات، وما يُذكر بالمعصية

من أقوى ما يحفظ التوبة ويثبتها في القلب: البعد عن المثيرات، وكل ما يذكر بالمعصية.

فالتوبة لا تكتمل بمجرد الندم والإقلاع في لحظة، بل تحتاج إلى حماية مستمرة. ومن أعظم وسائل هذه الحماية أن يبتعد التائب عن كل ما يثير شهوته، أو يذكره بذنبه القديم، أو يعيد إلى قلبه لذة المعصية التي تاب منها.

لماذا كان البعد عن المثيرات باعثاً عظيماً على التوبة؟

لأن القلب ضعيف، والنفس أمارة بالسوء، والشیطان يستغل أي باب مفتوح. فإذا بقي التائب قريباً من أسباب الذنب (أماكن، أشخاص، صور، كلام، ذكريات...) فإن الفتنة تعود إليه قوية، وقد تنكسر توبته.

المثيرات تُحيي في النفس الشهوة التي كانت خامدة، وتعيد إحياء الذكريات القديمة، فتصير التوبة في خطر دائم.

أما من ابتعد عن هذه المثيرات فقد قطع الطريق على الشيطان، وأراح قلبه، وجعل توبته أبعد عن الانتقاض.

شواهد وأصول شرعية

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فنهى عن القرب من الزنا، لا عن فعله فقط، لأن القرب يفتح باب الفتنة.

وقال سبحانه في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَأَوْتُهُ الَّذِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ

نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ... قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

فكان من تمام عصمته البعد عن أسباب الفتنة.

وكان السلف رحمهم الله يبالغون في البعد عن كل ما يذكر بالمعصية.

«من أراد أن تصح توبته فليهرب من مواطن الذنب كما يهرب من الأسد،

وليقطع كل سبب يذكره بمعصيته».

وكانوا يقولون: «العين رائد القلب، فإذا أرسلت العين إلى المثيرات جاء القلب بالشهوة، وإذا حفظت العين سَلِمَ القلب».

كيف يحقق العبد هذا الباعث عملياً؟

يبتعد عن الأماكن التي اعتاد فيها المعصية.
يقطع العلاقة بمن كانوا شركاءه في الذنب أو يشجعونه عليه.
يتجنب النظر إلى ما يثير (صور، مقاطع، حسابات...).
يغيّر عاداته اليومية حتى لا تمر به الذكريات القديمة في نفس الظروف.
يستبدل المثيرات السيئة بما يذكر بالله (قراءة القرآن، مجالسة الصالحين، الذكر...).

بهذا يأمن التائب على توبته، ويقطع الطريق على العودة إلى الذنب، ويعيش في طمأنينة القلب.

فيبتعد عن كل ما يثير دواعي المعصية، ونوازع الشر، ويبتعد عن كل ما يثير شهوته، ويحرك غريزته من مشاهدة للأفلام، وسماع للأغاني الخليعة الماجنة، وقراءة للكتب السيئة، والمجلات الداعرة.

فكل ما من شأنه يثير فيك دواعي المعصية ونوازع الشر، ويحرك فيك الغريزة لمزاولة الحرام، قولاً وعملاً، سواء سماعاً أو مشاهدة أو قراءة، ابتعد عنه، واقطع صلتك به، كالأشخاص بعامة، والأصدقاء بخاصة، وهكذا النساء الأجانب عنك، وهكذا الأماكن التي يكثر ارتيادها وتُضعف إيمانك، كالنوادي والإستراحات والمطاعم، وهكذا الابتعاد عن مجالس اللغو واللغط، والابتعاد

عن الفتن، و ضبط النفس فيها، و منه إخراج كل معصية تُبت منها، و عدم إبقائها معك، في منزلك أو عملك.

وجاء في الحديث: أن يحيى بن زكريا قال لبني إسرائيل: وأمركم بذكر الله عز وجل كثيرا، وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعا في أثره، فأتى حصنا حصينا، فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل" (١)

عاشرا: مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار

أخي المسلم -اعلم أن مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار هي الوعاء التربوي والأنس الجلي الذي يحفظ التوبة ويضمن الاستمرار عليها؛ فإن الإنسان بطبعه مجذوبٌ إلى مشاكله ومجالسه، والطباع سارقة، والصاحب صاحب إما إلى طريق السلامة والإنابة، وإما إلى مهالك الغفلة والانتكاس. تتجلى قيمة هذا الباعث العظيم في تحقيق التوبة والثبات عليها من خلال المحاور التالية:

أولاً: أثر مصاحبة الأخيار في تحريك دواعي الإنابة والثبات:

التذكير عند الغفلة والإعانة عند الطاعة: الصديق الصالح هو المرأة الصافية التي تعينك على رؤية عيوبك؛ إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانك، ورؤية حاله في الاستقامة تحرك في القلب التنافس في الخيرات.

١ -المسند ٤/ ١٣٠. وإسناده صحيح. وهو من طريق أبان بن يزيد عن يحيى في الترمذي ٥/ ١٣٦ (٢٨٦٣)، قال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصحّحه ابن خزيمة ٣/ ١٩٥ (١٨٩٥)، والحاكم في مواضع ١/ ١١٧، ٢٣٦، ٤٢١، ووافقه الذهبي، وابن حبان ١٤/ ١٢٤ (٦٢٣٣) وصحّح الألباني وشعيب إسناده.

توفير البيئة الإيمانية الجاذبة: الاستقامة بين الصالحين أيسر على النفس وأخف؛ لأن جو المجموع الصالح يكسر حدة الشهوة، ويجعل فعل الطاعات أمراً مألوفاً ومحبباً.

دعاء الصالحين واستغفارهم: التائب بين الأخيار ينال بركة مجالسهم وتحفه دعواتهم في ظهر الغيب، امتثالاً للتوجيه الإلهي: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

❖ ثانياً: خطورة مجانية الأشرار وأثرها في منع الانتكاس

قطع حبال التزيين والمجاملة: قرين السوء هو أسرع طريق لإفساد التوبة؛ لأنه يهون المعصية، ويزين القبيح، ويستحث التائب للعودة إلى ما كان عليه عبر الاستهزاء أو الإغراء.

السلامة من الشبهات والشهوات المتعدية: مجانية أهل الفسق والبدع تحمي القلب من ورد الشبهات وتوقظ الفطرة من التأثير بظلمة معاصيهم.

دلالة حديث قاتل المائة: عندما أراد رجل التوبة بعد أن قتل مائة نفس، كان التوجيه الفاصل له من العالم هو قطع صلته ببيئة السوء: «ارْحَلْ إِلَى أَرْضٍ كَذًا وَكَذًا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سُوءٌ».

درر من كلام السلف والمحققين

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله، فليُنظر أحدكم من يخالل». (١)

١ - «مسند أحمد» (١٣ / ٣٩٨ ط الرسالة): «وأخرجه الطيالسي (٢٥٧٣)، ومن طريقه عبد بن حميد (١٤٣١)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «استكثروا من الأصحاب الصالحين؛ فإن لهم شفاعة يوم القيامة».

وقال مالك بن دينار رحمه الله: «إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار، خير لك من أن تأكل الخبيص (الحلوى) مع الفجار».

قال علي رضي الله عنه:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرَدَى حَلِيمًا حِينَ أَخَاهُ
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ إِذَا مَا الْمَرْءُ مَا شَاءُ
كَحَذَوِ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ إِذَا مَا النَّعْلُ حَاذَاهُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ مَقَائِيسُ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

الحادي عشر: استحضر فوائد ترك المعاصي

أخي القاري الكريم - إن من أعظم ما يحرك القلب نحو التوبة، ويقوي العزيمة على الإقلاع عن الذنوب: استحضر فوائد ترك المعاصي.

فالنفس بطبيعتها تميل إلى ما تراه نافعاً لها، وتنفر مما تراه ضاراً. فإذا استحضر العبد ما يجنيه من خيرات بترك المعصية، وما يدفعه عن نفسه من شرور، سهل عليه الترك، وقويت رغبته في التوبة، واستمر عليها بثبات.

لماذا كان استحضر فوائد ترك المعاصي باعثاً قوياً؟

لأن كثيراً من الناس ينظرون فقط إلى لذة المعصية العاجلة، وينسون ما يترتب على تركها من خيرات عظيمة في الدنيا والآخرة.

استحضار هذه الفوائد يغيّر ميزان الرغبة في القلب، فيجعل ترك الذنب أحبّ إلى النفس من فعله.

هذا الاستحضار يحوّل التوبة من مجرد خوف من العقاب إلى رغبة صادقة في الخير، فتكون أقوى وأدوم.

من أعظم فوائد ترك المعاصي

في الدنيا:

طمأنينة القلب وراحة البال، وزوال القلق والضيق الذي يصاحب الذنوب.
حفظ الصحة والعافية، فإن كثيرًا من المعاصي تضر بالبدن.
البركة في الرزق والعمر والعمل.
محبة الناس واحترامهم، وحفظ العرض والمكانة.
تسهيل الطاعات وفتح أبواب الخير.

في الآخرة:

مغفرة الذنوب وقبول التوبة.
النجاة من عذاب النار.
الفوز برضا الله وجنته.
رفع الدرجات وتكفير السيئات.
نور الوجه يوم القيامة، والأمن يوم الفزع الأكبر.
شواهد من الكتاب والسنة

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

فجعل التقوى (ومنها ترك المعاصي) سبباً للمخرج والرزق.
وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ
مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١].

هلال، عن أبي قتادة وأبي الدهماء، قالا: كانا يكثران السفر نحو هذا البيت،
قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فجعل يعلمني مما علمه الله، وقال: "إنك لن تدع شيئاً اتقاء
الله إلا أعطاك الله خيراً منه" (١).

وكان السلف رحمهم الله يستحضرون هذه الفوائد دائماً.
«إذا أراد العبد أن تقوى عزيمة على ترك الذنب، فليُنظر إلى ما يجنيه بتركه من
عاجل الخير وآجله، وإلى ما يدفعه عن نفسه من الشر، فإن هذا من أعظم ما
يسهل عليه الترك».

كيف يستحضر العبد هذه الفوائد عملياً؟

يذكر نفسه كل يوم بجملة من فوائد ترك المعصية.
يقرأ في كتب الترغيب والترهيب، وسير التائبين.
يتأمل حال من تابوا وتركوا الذنوب، وكيف تغيرت حياتهم إلى الأفضل.
يدعو الله أن يريه حسن عاقبة الطاعة وقبح عاقبة المعصية.
بهذا يقوى الباعث الداخلي، وتصبح التوبة رغبة صادقة لا مجرد خوف عابر.

١ - إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٣٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٨١٠)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (٩٩٤)،
والحارث في «مسنده» (١١٠١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١١٣٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٨٢١)، وغيرهم، ورجاله
ثقات، رجال مسلم، وهو على شرطه، وإبهام رجل البادية لا يضر، فإنه صحابي، والصحابة كلهم عدول، لا سيما وقد قال نور الدين
الهيثمي: رواه كله أحمد بأسانيد، ورجالها رجال الصحيح. ينظر: «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٩٦)، و«إتحاف الخيرة المهرة» (١ / ٢٠٨).

قال ابن القيم - رحمه الله - :

سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَرْكِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي إِلَّا إِقَامَةُ
الْمُرُوءَةِ وَصُونَ الْعُرْضِ وَحِفْظُ الْجَاهِ وَصِيَانَةُ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ قَوَامًا
لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَحَبَّةُ الْخَلْقِ وَجَوَارِ الْقَوْلِ بَيْنَهُمْ وَصَلَاحُ الْمَعَاشِ
وَرَاحَةُ الْبَدَنِ وَقُوَّةُ الْقَلْبِ وَطِيبُ النَّفْسِ وَنَعِيمُ الْقَلْبِ وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ وَالْأَمْنُ
مِنْ مَخَافِ الْفُسَّاقِ وَالْفَجَارِ وَقَلَّةُ الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالْحُزْنِ وَعِزُّ النَّفْسِ عَنْ احْتِمَالِ
الذِّلِّ وَصُونَ نُورِ الْقَلْبِ أَنْ تَطْفِئَهُ ظِلْمَةُ الْمُعْصِيَةِ وَحُصُولُ الْمَخْرَجِ لَهُ مِنْ مِمَّا ضَاقَ
عَلَى الْفُسَّاقِ وَالْفَجَارِ وَتَيْسَرُ الرِّزْقِ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَتَيْسِيرُ مَا عَسَرَ
عَلَى أَرْبَابِ الْفُسُوقِ وَالْمَعَاصِي وَتَسْهِيلُ الطَّاعَاتِ عَلَيْهِ وَتَيْسِيرُ الْعِلْمِ وَالنَّاءِ
الْحَسَنِ فِي النَّاسِ وَكَثْرَةُ الدُّعَاءِ لَهُ وَالْحَلَاوَةُ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا وَجْهُهُ الْمَهَابَةُ الَّتِي
تَلْقَى لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَانْتِصَارُهُمْ وَحَمِيَّتُهُمْ لَهُ إِذَا أُوذِيَ وَظَلَمَ وَذَبَّهُمْ عَنْ
عَرَضِهِ إِذَا اغْتَابَهُ مَغْتَابٌ وَسُرْعَةُ إِجَابَةِ دُعَائِهِ وَزَوَالُ الْوَحْشَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ
وَقَرَبُ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُ وَبَعْدُ شَيْاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنْهُ وَتَنَافُسُ النَّاسِ عَلَى خِدْمَتِهِ
وَقَضَاءُ حَوَائِجِهِ وَخُطْبَتُهُمْ لِمُودَتِهِ وَصَحْبَتِهِ وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِنَ الْمَوْتِ بَلْ يَفْرَحُ بِهِ
لِقُدُومِهِ عَلَى رَبِّهِ وَلِقَائِهِ لَهُ وَمَصِيرِهِ إِلَيْهِ وَصَغَرُ الدُّنْيَا فِي قَلْبِهِ وَكِبَرُ الْآخِرَةِ عِنْدَهُ
وَحِرْصُهُ عَلَى الْمَلِكِ الْكَبِيرِ وَالْفُوزِ الْعَظِيمِ فِيهَا وَذُوقُ حَلَاوَةِ الطَّاعَةِ وَوُجُدُ
حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَدُعَاءُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمِنْ حَوْلِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ وَفَرَحُ الْكَاتِبِينَ بِهِ
وَدُعَائِهِمْ لَهُ كُلِّ وَقْتٍ وَالزِّيَادَةُ فِي عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ وَإِيمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَحُصُولُ مَحَبَّةِ

الله لَهُ وإِقْبَاله عَلَيْهِ وفرحه بتوحيته وَهَكَذَا يجازيه بفرح وسرور لَا نِسْبَة لَهُ إِلَى
فرحه وسروره بالمعصية بِوَجْه من الْوُجُوه " (١)

الثاني عشر

استحضار أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجهه الشهوة:

اعلم بارك الله فيك - : استحضار أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما
توجهه الشهوة فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها،
وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد
من ثلمه، وإما أن تُذهب مالا بقاءه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا
قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاءها ألدّ وأطيب من قضاء الشهوة،
وإما أن تُطَرِّقَ لِوَضِيعِ إِلَيْكَ طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا
وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذكّره ألدّ من
نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة
مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات
والأخلاق.

^١ - الفوائد لابن القيم (ص: ١٥١)

استحضار أضرار الذنوب والمعاصي: فمن أضرارها حرمان العلم والرزق،
والوحشة التي يجدها العاصي في قلبه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين الناس
ومنها تعسير الأمور، وظلمة القلب، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير
العمر، ومحق بركاته

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها، وتُقَوِّي في القلب إرادة المعصية، وتضعف
إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ إرادة التوبة من القلب بالكلية، فيستمرئ
صاحبها المعصية، وينسلخ من استقباحها
ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه، وأن شؤمها لا يقتصر على
العاصي، بل يعود على غيره من الناس والدواب.

ومنها أن المعصية تورث الذل، وتفسد العقل، وتدخل العبد تحت اللعنة،
وتحرمة من دعوة الرسول"، ودعوة الملائكة، ودعوة المؤمنين.
كما أنها تطفئ نار الغيرة من القلب، وتذهب الحياء، وتضعف في القلب تعظيم
الرب، وتستدعي نسيان الله لعبده، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه.

ومنها أن تنزل الرعب في قلب العاصي، وتعمي قلبه، وتسقط منزلته، وتسلبه
أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذل والصغار، وتجعله من السفلة بعد
أن كان مُهَيَّأً لأن يكون من العلية، وتجري عليه شياطين الجن والإنس إلى غير
ذلك من أضرار المعاصي، التي إذا استحضرها العاقل كان حرياً به أن يقلع
عنها، ويحذر منها.

استحضار أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة هو
ميزان عريض وقاعدة جليلة من أمتن بواعث التوبة وأقوى مثبتاتها؛ فإن العبد إذا

وازن بعقله بين ألم ترك المحرم ولذة المعصية العابرة، وبين المعاناة الشديدة والعواقب الوخيمة التي تخلفها هذه الشهوة في الدنيا والآخرة، اختار عاجل الصبر على الشهوة زهدًا في كثرة آلامها.

تتضح الحكمة والموازنة العقلية في هذه القاعدة من خلال المحاور التالية:

❖ أولاً: الموازنة بين ألم الصبر وألم العقابة:

ألم الصبر عن الشهوة: هو ألم يسير، محصور في لحظات معدودة، ينتهي بالانتصار على النفس والشيطان، ويعقبه حلاوة الإيمان، وراحة الضمير، وعز الطاعة.

ألم ما توجبه الشهوة: هو ألم طويل ممتد؛ يجمع بين همّ الذنب، ووحشة القلب، ومحق البركة، وخوف الفضيحة، والتعرض لعذاب القبر، ثم الحساب والعقاب في الآخرة إن لم يتدارك الله العبد برحمته.

❖ ثانيًا: تفنيد خدعة اللذة العاجلة:

سرعة انقضاء اللذة: لذة الشهوة الحرام تزول في لحظات وتذهب حسرتها، ولا يبقى للتائب أو العاصي منها إلا التبعة والوزر.

ثبات العقابة والمرارة: المرارة والران الذي يتركه الذنب في القلب يدومان أطول بكثير من اللذة الزائلة التي دعت إليه.

❖ ثالثًا: تثبيت العبد عند ورود الشبهات والشهوات:

باعث للمواجهة: حين تهجم الشهوة على العبد وتدعوه إليها، يستحضر هذا الميزان قائلاً لنفسه: "صبر ساعة عن هذا الحرام، أيسر وأهون عليّ من الصبر

على نار جهنم، ومن الصبر على سخط الله، ومن الصبر على سلب النعم
وحرمان التوفيق".

حارس الثبات: هذا الاستحضار يحول دون انتكاس التائب؛ لأنه يجعله ينظر
إلى مآلات الأمور وعواقبها، ولا ينخدع بالظاهر البراق للفتنة.

الثالث عشر العلم: فالعلم نور

اعلم -زادك الله علماً- : أن العلم يستضاء به، ويُنظر من خلاله إلى الأمور على
حقيقتها.

والعلم يَشْغَلُ صاحبه بكل خير، ويُشْغَلُهُ عن كل شر؛ فإذا فُقد العلم فقدت
البصيرة، وحل الجهل، وانطمست المعالم أمام الإنسان، واختل ميزان الفضيلة
والرذيلة عنده؛ فلم يعد يفرق بين ما يضره وما ينفعه، فيصبح بذلك عبداً
للشهوة، أسيراً للهوى؛ فما أتى الإنسان من باب كما يؤتى من باب الجهل؛
فحري بالعاقل الناصح لنفسه ألا يبخر حظه من العلم، وأن ينال ولو قدراً
يسيراً منه.

ومن العلم في هذا السياق العلم بعاقبة المعاصي، وقبحها، ورذالتها، ودناءتها،
وأن الله إنما حرّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنيا والرذائل كما يحمي
الوالد الشفيق ولده عما يضره.

وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يُعلق عليها وعيدٌ بالعذاب

﴿ العلم النافع هو نبع الخشية، وأعظم قائد يقود العبد إلى طريق التوبة والإنابة. فكلما ازداد العبد علمًا بالله وبأسمائه وصفاته، وعلمًا بشريعته وأمره ونهيه، عظمت هيئته في قلبه، واستصغر نفسه وذنبه، وسارع إلى تطهير صحيفته بالتوبة النصوح.

تتجلى قيمة العلم كباعث على التوبة والخشية في المحاور التالية:

﴿ أولاً: معرفة الجبار توجب الخشية الإيمانية:

- العلم بالله يورث التعظيم: يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].
- فمن كان بالله أعرف، كان منه أخوف، ولعظمته أشد تعظيمًا، فيستحي أن يعصيه، وإن وقع في الذنب أسرع بالإنابة.
- إدراك حقيقة الذنب: الجاهل يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه، أما العالم فيرى ذنبه كأصل جبل يوشك أن يقع عليه؛ لأنه يعلم عظمة من عصى، لا مجرد حجم المعصية.

﴿ ثانيًا: العلم بالشرعية يفتح أبواب الأمل وينفي القنوط

- سعة رحمة الله: العلم يفيد التائب معرفة أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وأن باب التوبة مفتوح ما لم تغرغر الروح أو تطلع الشمس من مغربها، وهذا العلم يقتلع القنوط واليأس من قلب العبد.
- معرفة شروط التوبة وأحكامها: العلم هو الذي يبصر العبد بشروط التوبة الصحيحة (الإقلاع، الندم، العزم على عدم العودة، ورد المظالم إلى

أهلها) ليكون رجوعه إلى الله قائماً على بصيرة لا على مجرد عاطفة مجردة.

ثالثاً: كشف خُدع النفس ومداخل الشيطان

• البصيرة بمكائد الإبلية: العلم ينير للعبد المسالك، فيكشف له حيل الشيطان في التسويف وطول الأمل وتزيين المعاصي، فيسد عليه منافذ الفتنة قبل وقوعها.

• محاسبة النفس: العلم يمنح العبد ميزاناً دقيقاً يزن به أعماله وخواطره يومياً، فيستخرج عيوب نفسه وذنوب جوارحه ويداريتها بالاستغفار.

من روائع الآثار في مقام العلم والخشية

عن ابن مسعود-رضي الله عنه- أنه قال: ليس العلم بكثرة الحديث ولكن العلم بالخشية^(١)

قال الحسن البصري-رحمه الله-: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)**. [فاطر/ ٢٨].

«قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "أصل العلم خشية الله تعالى". فالزم خشية الله في السر والعلن، فإن خير البرية من يخشى الله تعالى، وما يخشاه إلا عالم، إذن فخير البرية هو العالم، ولا يغيب عن بالك أن العالم لا يعد عالماً إلا إذا كان عاملاً، ولا يعمل العالم بعلمه إلا إذا لزمته خشية الله.»^(٢)

^١ - تفسير العدل والإعتدال (ص: ١١٩٠)

^٢ - «حلية طالب العلم» (ص: ١٤٤)

أن رجلاً جاء إلى إبراهيم بن أدهم فقال له: يا أبا إسحاق إني مسرف على نفس، فأعرض على ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي قال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية ولم توبقك لذة قال: هات يا أبا إسحاق! قال: أما الأولى: فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه، قال: فمن أين أكل وكل ما في الأرض من رزقه؟ قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا هات الثانية.

قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده قال الرجل: هذه أعظم من الأولى! يا هذا إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين اسكن؟ قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل من رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟ قال لا، هات الثالثة.

قال: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه قال: يا إبراهيم! كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟ قال يا هذا أفيحسن أن تأكل من رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهر به؟ قال: لا هات الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فق له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً واعمل لله عملاً صالحاً قال: لا يقبل مني! قال يا هذا فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟

قالت: هات الخامسة: قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم قال : لا يدعونني ولا يقبلون مني قال : فكيف ترجو النجاة إذا ؟ قال له : يا إبراهيم حسبي حسبي أنا استغفر الله وأتوب إليه ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما .(١)

الرابع عشر: هجر العوائد

علم -زادك الله علما: أن العوائد هي السكون إلى الدعة والراحة، وما أَلْفَهُ الناسُ واعتادوه من الرسوم، والأوضاع، التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع؛ فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع. والوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد؛ لأنها من أعظم الحجب والموانع بين العبد، وبين النفوذ إلى الله ورسوله. هجر العوائد (أي قطع العادات والبيئات والعلائق التي تُذكر بالمعصية وتسهلها) هو المحرك العملي والوقائي الأهم بين بواعث التوبة، إذ لا تستقيم إرادة العبد في ترك الذنب مع بقاءه بين أسبابه ودواعيه. ويمكن تفصيل هذا الباعث وأحكامه في النقاط التالية:

❦ حقيقة هجر العوائد:

(١) - شرح المعرفة وبذل النصيحة تح : شيخنا مجدي فتحي السيد (٢٠-٢١)

انتقال النفس من ألف المعصية والاستئناس بها إلى الانفطام عنها ومجانبتها.
ترك أخذان السوء، والمجالس التي يُعصى الله فيها، والأماكن أو الوسائل التي
تُيسر الوصول للذنوب.

🔷 الشاهد الشرعي والمنهجي:

حديث قاتل المائة: لما أراد التوبة قال له العالم: «انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذًا وَكَذًا،
فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ
سَوْءٍ» (متفق عليه)، فجعل الهجرة التامة عن بيئة المعصية شرطاً لتمام الإنابة.
الأمر بمجانبة مجالس الخوض: قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي
آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

🔷 مظاهر هجر العوائد:

🔷 هجر الأشخاص: مفارقة رفقة السوء واستبدالهم بالصحبة الصالحة التي
تعين على الطاعة.
🔷 هجر الأماكن والوسائل: الابتعاد عن مواطن الفتنة، وإلغاء أو حظر كل أداة أو
حساب يُجرّ للذنوب.
🔷 هجر العادات الفكرية واليومية: تغيير الروتين اليومي الذي ينتهي بالعبد إلى
الفراغ أو المعصية.
🔷 الأثر الإيماني لهجر العادات:
🔷 حماية القاطن للتوبة من الانتكاس والرجل العائدة.
🔷 تحقق صدق العزيمة؛ فإن العبد إذا ترك مألوفه لله عوّضه الله حلاوة الإيمان
وأنس الطاعة.

من أراد التوبة فليقطع العلائق التي كانت سبباً لمعصيته، وليهاجر من أرض الذنب كما يهاجر من دار الكفر». وكانوا يقولون: «لا تتم التوبة إلا بثلاثة: الإقلاع، والندم، وهجر أسباب الذنب وعوائده».



الخامس عشر هجر العلائق:

أخي المسلم : إن هجر العلائق هو قطع ما يربط القلب بالذنب من الأسباب والوسائل، والفرار من بيئة المعصية وصحبة السوء. وهو من الحصون الحصينة وأصدق بواعث التوبة والنصح؛ ذلك أن التوبة لا تستقيم ولا تدوم مع بقاء أسباب الذنب وعلائقه متصلة بالعبد، فإن بقاء الشركوك يورث العودة، وهجرها يورث العصمة والنعمة. تتضح أهمية هجر العلائق كباعث وشرط لكمال التوبة من خلال المحاور التالية:

أولاً: حماية القلب من دواعي الذنب ومثيراته

- قطع مادة الفتنة: العلائق والروابط هي الوقود الذي يغذي الشهوة في القلب. فمن قطع أسباب الذنب (كالأماكن المحرمة، والأجهزة،

والأرقام، والعلاقات المشبوهة)، فقد أغلق الأبواب التي يتسلل منها الشيطان.

- الفرار من الضعف البشري: النفس ضعيفة، والشهوات خاطفة، ومجرد البقاء في بيئة الذنب يحرك الخطرات ويعيد التمني، ولهذا أمر النبي ﷺ التائب بترك أرضه وقال له: «ارْحَلْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضٌ سُوءٌ».

❖ ثانيًا: إثبات صدق العزم والإنابة:

- برهان التوبة النصوح: التوبة دعوى، وهجر العلائق هو البرهان والبيان. التائب الصادق هو من يضحى برغباته وأشياء كان يحبها إثارة لمرضاة الله، ويجزم بقطع كل ما يبعده عن ربه.
- السلامة من العودة والتذبذب: بقاء العلائق يترك باب الرجوع مفتوحًا على مصراعيه، أما قطعها فيحسم المادة، ويجعل العبد يخطو خطوات واثقة في طريق الاستقامة دون تردد.

❖ ثالثًا: تبديل البيئة والصحبة

- مفارقة قرناء السوء: الصحبة السيئة من أعظم العلائق المانعة من التوبة؛ لأن مجاملتهم ومجالستهم تكسر دوافع الندم وتزين الحرام.

- عمارة الوقت بالبديل الصالح: هجر علائق الشر يستلزم استبدالها بعلائق الخير؛ من مرافقة الصالحين، وعمارة المساجد، واشتغال الجوارح بما يرضي الله.

✍ درر من كلام المحققين:

وقال بعض السلف: من لم يقطع أسباب الذنب، لم يذق حلاوة التوبة.»

قال ابن القيم - رحمه الله - : الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٤)

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها فإنها تعوق

القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه وهي ثلاثة أمور شرك وبدعة ومعصية فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد وعائق البدعة بتحقيق السنة وعائق المعصية بتصحيح التوبة وهذه العوائق لا تتبين للعبد يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحسن بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر وإلا فمادام قاعدا لا يظهر له كوامنها وقواطعها. (١)

السادس عشر إصلاح الخواطر والأفكار

اعلم - بارك الله فيك - : هو العتبة الأولى للتوبة، والرأس الأصلي لكل عمل اختياري؛ فإن الفكر هو مبدأ الإرادة، والإرادة هي محرك الجوارح.

^١ - الفوائد لابن القيم (ص: ١٥٤)

فمن ترك خاطره يتجول في رياض المعاصي والشهوات، اقتاده ذلك أولاً إلى التمني، ثم إلى العزم، ثم إلى موقعة الذنب.

أما من أصلح خطراته وحرس قلبه، فقد حسم مادة الشر من أصلها، وفتح على نفسه باب التوبة والإنابة.

تتجلى أهمية إصلاح الخواطر كباعث على التوبة والإقلاع عن المعصية في المحاور التالية:

❖ أولاً: قطع شجرة المعصية من جذورها

- سلسلة الوقوع في الذنب :المعصية تبدأ بـ خطرة، فإن لم تدفع صارت شهوة، ثم تتطور إلى إرادة، ثم تشتد فتصبح عزمًا جازمًا، فيقع الفعل، ثم ينقلب مع التكرار إلى عادة يصعب الخروج منها.
- الحراسة في المبادي :العقل يقطع الطريق عند الخطرة الأولى؛ فإن دفع الخطرة الردية أسهل بشير من قطع العزم أو إقالة العثرة بعد وقوع الذنب.

❖ ثانيًا: إحياء عمارة القلب بالخواطر الإيمانية:

- طرد الفراغ القلبي :النفس لا تقبل الفراغ؛ فإن لم تشغلها بالخواطر النافعة (كالتفكير في آلائ الله، وتذكر الآخرة، ومحاسبة النفس)، شغلتك بالخواطر الردية والأمانى الباطلة.

- تغذية داعي الإنابة: إذا امتلأ الفكر بالتفكر في جلال الله وحلمه وستره، انبعثت في القلب حرارة الندم، وتحركت الإرادة نحو المبادرة بالتوبة والاستغفار.

ثالثاً: حفظ السلامة الباطنة والمراقبة

- الاستحياء من اطلاع الله: العبد الذي يعلم أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يستحيي أن يتخذ قلبه جولاً للأفكار الخبيثة والشهوات المحرمة.
- تصفية النية: التوبة الصادقة تتطلب طهارة الباطن؛ وإصلاح الفكر هو الضامن لعدم العودة للذنوب، لأنه يغير قناعات العبد الداخلية وميله النفسي تجاه المعصية.

طرق عملية لإصلاح الخواطر والأفكار

- قطع علائق الفضول: التقليل من فضول النظر، والحديث، والمخالطة؛ فإنها أسرع الجوارح جلباً للخواطر الفاسدة.
- الاستعاذة الفورية: إذا وردت خاطرة سوء، فرّ منها بالاستعاذة بالله واشتغل فوراً بما يضادها من ذكر أو عمل صالح.
- إدامة التفكير النافع: جعل الفكر جولاً في العبر، والقرآن، وشرف التوبة، وحسن العاقبة للمتقين.

قال ابن القيم رحمه الله في "الفوائد"

دافع الخطرة؛ فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة؛ فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمة وإرادة، فإن لم تدفعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها.^(١)

قال ابن القيم -رحه الله - : مبدأ كل علم نظري، وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار؛ فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة؛ فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها؛ فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابته؛ فإنه -سبحانه- به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن تولّيه لعبده كل حفظ، ومن تولّيه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء^(٢)

وقال: =واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر، فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة؛ فردّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يُعطَ الإنسان إماتة الخواطر، ولا القوة على قطعها؛ فإنها تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها، ورضاه به، ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها، وكراهته له، وأنفثته منه

إلى أن قال -رحمه الله - : =وقد خلق الله -سبحانه- النفس شبيهة بالرحى

^١ - الفوائد لابن القيم ط- أخرى (ص: ٣٤).

^٢ - الفوائد لابن القيم (ص: ١٧٣)

الدائرة التي لا تسكن، ولا بد لها من شيء تطحنه؛ فإن وُضع فيها حبُّ طَحْنَتُهُ، وإن وُضع فيها تراب أو حصى طحنته؛ فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحي، ولا تبقى تلك الرحي مُعَطَّلَةً قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها؛ فمن الناس من تطحن رحاه حبًّا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبنًا ونحو ذلك؛ فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه^(١)

وقال - رحمه الله: = فإذا دَفَعْتَ الخاطرَ الواردَ عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قَبْلَتُهُ صار فكراً جَوَّالاً، فاستخدم الإرادة، فتساعَدَتْ هي والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالتمني والشهوة وتوجُّهه إلى جهة المراد.

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعينك دون ما لا يعينك؛ فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فَكَّرَ فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه

إلى أن قال: = وإياك أن تُمَكِّنَ الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك؛ فإنه يفسدها عليك فساداً يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوسوس والأفكار المضرة،

^١ - الفوائد لابن القيم ط- أخرى (ص: ١٩١)

ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أَعْتَتَه على نفسك بتمكينه من قلبك، وخواطرك فَمَلَكَهَا عليك (١)

السابع عشر: الحياء

أخي القارئ: الحياء هو خلق الكرام، وزمام المروءة، وحياة القلب الحقيقية؛ وهو من ألطف بواعث التوبة وأقواها أثرًا في النفس. فإذا استحيى العبد من ربه، استحيى أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، فيتحرك في قلبه داعي الإنابة لا لمجرد الخوف من العقاب، بل إجلالًا ومحبةً وتعظيمًا لوليه ومولاه. تتجلى قوة الحياء ك باعث على التوبة والإقلاع عن المعصية في المحاور التالية:

أولاً: الحياء من نعم الله ومقابلتها بالمعاصي:

استشعار قُبْح الكفران: يرى الحيُّ نِعَمَ الله السابغة عليه في صحته ورزقه وستره، فيستحيى أن يستعين بتلك النعم على معصية المنعم، أو أن تجري جوارحه بما يسخطه.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: نازعتني نفسي إلى أمر مكروه في الشرع، وجعلت تنصب لي التأويلات، وندفع الكراهة، وكانت تأويلاتها فاسدة، والحجة ظاهرة على الكراهة.

فلجأت إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلت على القراءة، وكان درسي قد بلغ سورة يوسف، فاتحتها، وذلك الخاطر قد شغل قلبي، حتى لا أدري ما أقرأ. فلما بلغت إلى قوله تعالى: { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ }

^١ - الفوائد لابن القيم ط- أخرى (ص: ١٩٢).

[يوسف: ٢٣] ، انتبهت لها، وكأنني خوطبت بها، فأفقت من تلك السكره،
فقلت: يا نفس! أفهمت؟ هذا حريع ظلمًا، فراعي حق من أحسن إليه، وسماه
مالكا، وإن لم يكن له عليه ملك، فقال: { إِنَّهُ رَبِّي }، ثم زاد في بيان موجب كف
كفه عما يؤذيه، فقال: { أَحْسَنَ مَثْوَايَ } . فكيف بك، وأنت عبد على الحقيقة
لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك، وإن ستره عليك الزلل أكثر من
عدد الحصى؟!

أفما تذكرين كيف رباك، وعلمك، ورزقك، ودافع عنك، وساق الخير إليك،
وهذا أقوم طريق، ونجاك من كل كيد، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة
الذهن الباطن، وسهل لك مدارك العلوم، حتى نلت في قصير الزمان رزقك بلا
كلفة تكلف، ولا كدر من، رغداً غير نزر؟!

فوالله، ما أدري أي نعمة عليك أشرح لك، حسن الصورة، وصحة الآلات؟ أم
سلامة المزاج، واعتدال التركيب؟ أم لطف الطبع الخالي عن حساسة؟ أم إلهام
الرشاد منذ الصغر؟ أم الحفاظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل؟ أم تحبيب
طريق النقل، واتباع الأثر، من غير جمود على تقليد لمعظم، ولا انخراط في
سلك مبتدع؟ { وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا } [إبراهيم: ٣٤] .

كم كايد نصب لك المكاييد فوقاك؟ كم عدو حط منك بالذم فراقك؟ كم أعطش
من شراب الأمانى خلقًا وسقاك؟ كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك؟
فأنت تصبحين وتمسين سليمة البدن، محروسة الدين، في تزيد من العلم،

وبلوغ الأمل. فإن منعت مرادًا، فزرقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع، فسلمي حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح.

ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سنع ذكره، امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح، فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه؟! {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢٣].^(١)

الاستحياء من ستر الله: حين يذنب العبد فيستره الله ولا يفضحه، يبعث هذا الستر في قلب الحي حياءً جمًّا يدفعه للخجل من استمرار المعصية، والتوبة فورًا وفاءً لهذا الستر.

❦ ثانيًا: الحياء من معية الله وإطلاعه:

استحضار المراقبة: الحياء ثمرة من ثمار المراقبة؛ فمن علم أن الله يراه ويسمعه ويطلع على سريرة قلبه، انكسرت شهوته، واستحيى أن يجاهر رب السموات والأرض بالخطيئة.

وقال عامر بن قيس -رحمه الله-: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني.

وقال محمد بن علي الترمذي -رحمه الله- اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك وأجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمة عنك وأجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه وأجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه

(١) - صيد الخاطر (ص: ١٨٨-١٨٩)

قال أعرابي خرجت في ليلة ظلماء فإذا أنا بجارية كأنها علم فأردتها فقالت
ويلك أمالك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين فقلت إياها والله ما يرانا
إلا الكواكب فقالت وأين مكوبها.
وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق
إلى ما تنظر إليه.

وقال المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.
وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

حياة القلب: يقول ابن القيم رحمه الله: «على قدر حياة القلب يكون فيه
الحياء»، فالقلب الحي يجد لنكث العهد ألماً وللمعصية وحشةً، فيسارع
بالإقلاع والتطهر.

❦ثانياً: كسر الجراءة على الحق جل جلاله:

الفرق بين الخوف والحياء: الخوف يهرب بالعبد من العقاب، أما الحياء فيفر
بالعبد إلى الله تعظيماً له. الحياء يمنع الوقاحة مع الحق، ويجعل العبد يرى ذنبه
عظيماً مهما صغر.

الاستحياء من الشواهد: الحي يستحي من كرام الكاتبين (الملائكة) أن يكتبوا
في صحيفته ما يشينه، ويستحي من جوارحه أن تشهد عليه يوم القيامة.
فهذا الخلق إذا غرر في النفس، ونمت عروقه فيها_ازداد رونقها صفاءً، ونفض
على ظاهر صاحبها مآثر خيراتٍ حسان.

وإذا انتزع من شخص فقد فقد المروءة، وثكل الديانة التي هي الجناح المبلغ لكل كمال؛ ذلك أن الحياء خلق يبعث على فعل الجميل وترك القبيح، وهو عبارة عن انقباض النفس عما تدم عليه، وثمرته ارتداعها عما تنزع إليه الشهوة من القبائح.

فإذا تمزق ستر هذه الفضيلة بغلبة الشهوة على النفس اختلت هيئة الإنسان بالضرورة، وبقي صاحبها سائماً في مراتع البغي والفسوق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان.

وبالجملة فالحياء كله خير، والحياء لا يأتي إلا بخير، والحياء خلق الإسلام، وشعبة من شعب الإيمان.

عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ فقال : الحياء لا يأتي إلا بخير فقال بشير بن كعب مكتوب في الحكمة ان منه وقارا ومنه سكينه فقال عمران أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن صحفك (١).

عن يزيد بن طلحة الركاني أن النبي ﷺ قال : إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء (٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان (٣).

١ - أخرجه أحمد ح ١٩٨٤٣ و البخاري ح ٦١١٧ و مسلم ح ٣٧

٢ - أخرجه مالك في الموطأ ح ٩٤٩ و الطبراني في الأوسط ح ١٧٥٨ و قال الألباني : حسن ، الصحيحة (٩٤٠) ، الروض النضير (٤١)

٣ - أخرجه أحمد ح ٩٣٥٠ و البخاري ح ٩ و مسلم ح ٣٥

عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت (١) ..

هذا وإن أعظم الحياء أن يستحي العبد من ربه _ جل وعلا _ وذلك بامثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ فإن العبد متى علم بنظره إليه، ومقامه عليه، وأنه بمرأى ومسمع منه، وكان حييًّا استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه. ومن الحياء الحياء من الناس بترك المجاهرة بالقبيح أمامهم.



الفصل الرابع: موانع قبول التوبة

إنَّ التوبة إلى الله تعالى من أجلِّ العبادات وأعظم القربات، وهي باب الرحمة المفتوح لعباد الله ما داموا في زمن الإمكان، وقد دعا الله تعالى عباده إليها، ووعد التائبين بالقبول والمغفرة، فقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

غير أن التوبة ليست مجرد كلمات تُقال باللسان، ولا مجرد شعور عابر بالندم، وإنما هي رجوع صادق إلى الله تعالى، يقوم على الإقلاع عن الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم العودة إليه، وردَّ الحقوق إلى أهلها إذا كان الذنب متعلقًا بحقوق العباد.

١ - أخرجه أحمد ح ١٧١٣١ و البخاري ح ٣٤٨٤

ومن هنا كان من المهم التفريق بين موانع التوبة وموانع قبول التوبة؛ فموانع التوبة هي الأمور التي تحول بين العبد وبين التوبة أصلاً، فتجعله مصرّاً على معصيته، غافلاً عن ربه، مؤجلاً للرجوع إليه. أما موانع قبول التوبة فهي أمور تتعلق بحقيقة التوبة وشروطها ووقتها وآثارها؛ فقد يظن العبد أنه قد تاب، بينما لم تتحقق في توبته حقيقة الإقلاع أو الندم أو العزم، أو تكون التوبة متعلقة بحقوق للعباد لم تؤدّ، أو تقع في وقت لا تقبل فيه التوبة شرعاً.

وقد يرفع الإنسان يديه إلى الله قائلاً: «تبت إليك يا رب»، بينما قلبه ما زال متعلقاً بالمعصية، أو لسانه يستغفر وهو مصرٌّ عليها، أو يترك الذنب ظاهراً وهو عازم على العودة إليه عند أول فرصة، أو يطلب المغفرة من الله عن مظلمة في حق إنسان ولم يرد إليه حقه مع قدرته على ذلك. فليست العبرة بمجرد دعوى التوبة، وإنما العبرة بصدقها واستيفائها لشروطها وظهور آثارها على حياة صاحبها.

ومن أخطر ما ينبغي أن يتنبه إليه التائب أن قبول التوبة فضل من الله تعالى، لا يستحقه العبد استحقاقاً مستقلاً، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]. ولذلك لا يصح للعبد أن يجزم لنفسه أو لغيره بأن توبته قد رُدّت أو قُبِلت، وإنما يبحث في الأسباب والشروط والموانع التي جاءت بها الشريعة، ويرجو رحمة الله، ويجتهد في تحقيق التوبة النصوح.

وفي هذا الفصل نقف مع جملة من موانع قبول التوبة ومفسداتها، لنبيّن متى تكون التوبة صادقة مستوفية لشروطها، ومتى تكون مجرد دعوى لا يوافقها عمل القلب والجوارح، وما أثر حقوق العباد، والإصرار على المعصية، وعدم الإخلاص، وتأخير التوبة حتى يفوت وقتها، وغير ذلك من الأمور التي ينبغي للتائب أن يحذرهما.

والمقصود من هذا البحث ليس تخويف التائب من رحمة الله أو إغلاق باب الرجاء أمامه، وإنما المقصود أن يعرف العبد حقيقة التوبة التي يحبها الله ويرضاها، فيدخل هذا الباب دخول الصادقين، جامعاً بين الخوف والرجاء، وبين الندم والعمل، وبين ترك الذنب والإقبال على الطاعة؛ حتى تكون توبته بداية حياة جديدة، لا مجرد لحظة عاطفية عابرة.

فالتائب الصادق لا يكتفي بأن يقول: «تبت إلى الله»، بل يسأل نفسه: هل أقلعت؟ هل ندمت؟ هل عزمت على عدم العودة؟ هل أديت حقوق العباد؟ هل أصلحت ما أفسدت؟ وهل ظهرت حقيقة التوبة على قلبي وسلوكي؟

ومن هنا تأتي أهمية هذا الفصل؛ إذ إن معرفة موانع قبول التوبة جزء من معرفة حقيقة التوبة نفسها، حتى لا يغتر العبد بمجرد القول، ولا يقنط من رحمة الله، بل يسير إلى ربه تائباً صادقاً، خائفاً راجياً، مستمسكاً بوعده الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

أولاً: التوبة باللسان مع بقاء القلب على الذنب:

من أعظم ما ينافي حقيقة التوبة الإصرار على الذنب مع القدرة على تركه؛ لأن التوبة في حقيقتها رجوعٌ من المعصية إلى طاعة الله تعالى، وإقلاعٌ عن الذنب، وندمٌ على ما مضى، وعزمٌ صادقٌ على عدم العودة إليه. فإذا بقي العبد مصرًّا على معصيته، مقيمًا عليها، مستمرًّا في فعلها، ثم قال بلسانه: «تبت إلى الله»، فإن قوله لا يوافق حقيقة التوبة التي أمر الله بها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فمدح الله أهل التوبة والاستغفار بأنهم لا يصرون على الذنب، وإنما إذا وقعوا في معصية تذكروا الله، واستغفروه، ورجعوا إليه، وأقلعوا عن ذنبهم.

والإصرار على الذنب ليس مجرد تكرار وقوع المعصية، وإنما من صورته أن يستمر الإنسان عليها مع علمه بتحريمها، وعدم نيته في تركها، ورضاه بالإقامة عليها. أما من تاب توبة صادقة، ثم غلبته نفسه فعاد إلى الذنب بعد ذلك، فلا يقال إن توبته الأولى كانت باطلة لمجرد عودته، بل يحتاج إلى توبة جديدة من الذنب الذي عاد إليه.

وهنا ينبغي التفريق بين أمرين:

الأول: أن يقول العبد: «تبت من الذنب» وهو ما يزال مصرًّا عليه، ولا يريد تركه.

فهذه ليست توبة نصوحًا؛ لأن الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة إليه من صميم التوبة.

الثاني: أن يترك العبد الذنب صادقاً في توبته، ويندم عليه، ويعزم ألا يعود إليه، ثم تضعف نفسه بعد ذلك فيقع فيه مرة أخرى.

فهذا عاصٍ يحتاج إلى توبة جديدة، ولا ينبغي أن يقنط من رحمة الله؛ لأن باب التوبة لا يغلق بمجرد تكرار الذنب، ما دام العبد كلما أذنب رجع إلى الله تعالى تائباً نادماً.

ومن أخطر صور الإصرار أن يجمع العبد بين الاستغفار باللسان والإقامة على المعصية بالجوارح؛ فيقول: «أستغفر الله» وهو عازم على الاستمرار، أو يستغفر عقب الذنب ثم يعود إليه دون ندم أو إقلاع أو عزم على الترك. فهذه صورة تحتاج إلى مراجعة حقيقة التوبة في القلب، لأن الاستغفار الصادق ينبغي أن يصحبه رجوع إلى الله تعالى.

وقد قال بعض السلف في معنى التوبة: الاستغفار باللسان مع الإصرار على الذنب ليس توبة؛ لأن حقيقة الاستغفار طلب المغفرة، ومن تمام صدقه أن يسعى العبد إلى ترك ما يستغفر الله منه.

والتائب الصادق لا يشترط أن يضمن لنفسه العصمة من الذنب، وإنما المطلوب منه أن يكون صادق العزم وقت التوبة؛ فإن عاد إلى الذنب بعد ذلك، لم يقل: «لا فائدة من التوبة»، بل يجدد توبته، ويعاود الرجوع إلى ربه.

وهذا من رحمة الله بعباده؛ فالله تعالى لا يريد من العبد أن يكون معصوماً من الخطأ، وإنما يريد منه إذا أخطأ أن يرجع ويندم ويستغفر ويجاهد نفسه.

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»: (١)

أما استغفار اللسان مع إصرار القلب على الذنب، فهو دعاء مجرد إن شاء الله أجابه، وإن شاء رده. وقد يكون الإصرار مانعا من الإجابة،

وروى اللالكائي، وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "وَيْلٌ لِلَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (٢).

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: " .. وَالْمُسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبٍ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ " .. (٣)

وقول القائل: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، معناه: أطلب مغفرته، فهو كقوله: اللهم اغفر لي، فالاستغفار التام الموجب للمغفرة: هو ما قارن عدم الإصرار، كما مدح الله أهله، ووعدهم بالمغفرة، قال بعض العارفين: من لم يكن ثمرة استغفاره تصحيح توبته، فهو كاذب في استغفاره ... فأفضل الاستغفار ما اقترن به ترك الإصرار، وهو حينئذ توبة نصوح، وإن قال بلسانه: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وهو غير مقلع بقلبه، فهو داع لله بالمغفرة، كما يقول: اللهم اغفر لي، وهو حسن وقد يرجى له الإجابة، وأما من قال: "توبة الكذابين"، فمراده أنه ليس بتوبة، كما يعتقده بعض الناس، وهذا حق، فإن التوبة لا تكون مع الإصرار. اهـ.

١ - أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وعبد بن حميد (١١٩٧)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، والحاكم ٤ / ٢٤٤، والدارمي (٢٧٢٧)، وابن عدي ٥ / ١٨٥٠، والبيهقي في الشعب (٧١٢٧)، وابن حبان في المجروحين ٢ / ١١١، والمزي ٢١ / ١٣١.

٢ - رواه اللالكائي في "اعتقاد أهل السنة" (١٠٤٨ / ٦)، وكذا الإمام أحمد في "المسند" (١٦٥ / ٢).

٣ - ولا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والراجح أنه موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، كما رجح ذلك ابن حجر رحمه الله في الفتح (٤٧١ / ١٣)، ورجح وقفه أيضاً غيره.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الذنوب يزول موجبها بأشياء: (أحدها) التوبة. و (الثاني) الاستغفار من غير توبة. فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب؛ فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال. اهـ.

وقال في منهاج السنة: الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعو ولا يتوب ... اهـ. (١)

وقال في موضع آخر: أما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاع عنه، فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه.

وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأس من رحمة الله، ولا يقطع بالمغفرة له، فإنه داع دعوة مجردة. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من داع يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها، قالوا: يا رسول الله، إذا نكث، قال: الله أكثر»

فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة، وإذا لم تحصل فلا بد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خير آخر، فهو نافع كما ينفع كل دعاء.

^١ - «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢١٠)

وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة أو يدعي أن استغفاره توبة، وأنه تائب بهذا الاستغفار، فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائباً، فإن التوبة والإصرار ضدان: الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة. اهـ. (١)

ثانياً: عدم الندم على الذنب:

من أعظم ما يمنع تحقق التوبة الصادقة عدم الندم على الذنب؛ لأن التوبة ليست مجرد تركٍ ظاهري للمعصية، ولا مجرد استغفار باللسان، وإنما هي رجوع القلب إلى الله تعالى، وشعوره بخطر ما اقترف، وأسفه على مخالفته لأمر ربه، ورغبته الصادقة في التخلص من آثار الذنب.

والندم انفعال القلب بالأسى والحزن والحسرة بسبب ما وقع من ذنب خوفاً من سوء عاقبته عند الله أو حياءً من الله.. إذا تذكر عظيم ذنوبه وكثير خطئه هاجت عليه أحزانه واشتعلت حركات فؤاده وأسبل دمعته فأنفاسه متوهجة وزفراته بحرق فؤاده متصلة، إنه الشعور بالتقصير أمام الله عز وجل.. يستجمع الإنسان في ذاكرته إساءته إلى الله وإحسان الله تعالى إليه.. يتذكر نعم الله تعالى عليه ويتذكر معصيته لله عز وجل فينشأ من ذلك حالة الندم.. حالة الأسى والأسف التي يذوب فيها القلب كما يذوب الملح في الماء

^١ - مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء - تحقيق أنور الباز) (١٠ / ٣١٩)

وقد جعل النبي ﷺ الندم أصلاً عظيماً من أصول التوبة عن عبد الله بن معقل ، قال : «كنت مع أبي وأنا إلى جنبه عند عبد الله بن مسعود ، فقال له أبي : أسمعت من رسول الله ﷺ يقول : الندم توبة؟ ، فقال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ .» (١)

فالحديث يدل على أن الندم على المعصية عنصر جوهري في التوبة، وأن من لم يندم على ذنبه لم تتحقق في توبته حقيقتها؛ لأن القلب الذي لا يتألم من المعصية، ولا يحزن على مخالفة أمر الله، لا يكون قد رجع إلى الله رجوعاً صادقاً.

ما المراد بالندم؟

والندم انفعال القلب بالأسى والحزن والحسرة بسبب ما وقع من ذنب خوفاً من سوء عاقبته عند الله أو حياءً من الله.. إذا تذكر عظيم ذنوبه وكثير خطئه هاجت عليه أحزانه واشتعلت حركات فؤاده وأسبل دمعته فأنفاسه متوهجة وزفراته بحرق فؤاده متصلة، إنه الشعور بالتقصير أمام الله عز وجل.. يستجمع الإنسان في ذاكرته إساءته إلى الله وإحسان الله تعالى إليه.. يتذكر نعم الله تعالى عليه ويتذكر معصيته لله عز وجل فينشأ من ذلك حالة الندم.. حالة الأسى والأسف التي يذوب فيها القلب كما يذوب الملح في الماء.

١ - أخرجه أحمد (٤٢٢/١ ، رقم ٤٠١٢) ، والبخارى فى التاريخ الكبير (٣٧٣/٣) ، وابن ماجه (١٤٢٠/٢ ، رقم ٤٢٥٢) قال البوصيرى (٢٤٨/٤) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وأخرجه ابن حبان (٣٧٧/٢ ، رقم ٦١٢) ، والحاكم (٢٧١/٤ ، رقم ٧٦١٢) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٨٦/٥ ، رقم ٧٠٢٩) .

وليس المقصود أن يندم الإنسان على الذنب لمجرد ما ترتب عليه من خسارة دنيوية؛ كأن يندم على السرقة لأنه خسر ماله بسببها، أو يندم على شرب الخمر لأنه أضر بصحته، أو يندم على معصية لأنه خسر بها مكانته بين الناس.

فالندم الذي تقوم به التوبة هو أن يقول القلب: ليتني لم أعص الله، وليتني لم أخالف أمره، وليتني لم أقع فيما يسخطه.

ولهذا قرر أهل العلم أن الندم ينبغي أن يكون على المعصية من حيث هي معصية لله تعالى، لا لمجرد ما ترتب عليها من أضرار دنيوية.

لماذا كان الندم من أركان التوبة؟

لأن الإنسان إذا عرف قبح الذنب، واستشعر عظمة من عصي، وعرف ما يترتب على المعصية من سخط الله وعقوبته، نشأ في قلبه الندم، وهذا الندم يدفعه إلى الإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة إليه.

فالندم يتعلق بالماضي، والإقلاع يتعلق بالحاضر، والعزم على عدم العودة يتعلق بالمستقبل.

وبذلك تجتمع التوبة الصادقة في أزمتها الثلاثة:

الماضي: ندم على الذنب.

الحاضر: إقلاع عن المعصية.

المستقبل: عزم على عدم العودة.

وقد بين أهل العلم أن الندم الصادق يستلزم الإقلاع والعزم على عدم العودة؛
ولذلك كان من أعظم أركان التوبة.

ثالثاً: صور عدم الندم على الذنب:

من صور عدم الندم أن يقول الإنسان:

«نعم، فعلت الذنب، ولا أرى في ذلك مشكلة.»

أو أن يكون في قلبه إعجاب بالمعصية، ويتمنى لو أتيحت له الفرصة ليعود
إليها.

ومنها أن يفرح بالذنب، أو يفتخر به، أو يتحدث به على سبيل المباهاة، أو يرى
أن التزامه بأحكام الشرع هو الذي حرّمه من تلك اللذة.

ومنها أيضاً أن يترك المعصية بسبب عجزه عنها، ولكنه إذا عادت إليه القدرة
عليها عاد إليها من غير تردد؛ فهذا لم يتحقق في قلبه الندم الذي يحمله على
الرجوع إلى الله تعالى.

الفرق بين الندم على الذنب والندم على آثاره:

وهذه مسألة دقيقة ينبغي التنبيه إليها.

قد يندم الإنسان لأنه عوقب بسبب ذنبه، أو لأنه فقد ماله، أو انكشف أمره، أو خسر مكانته، أو أصيب بضرر صحي، لكنه لا يندم لأنه عصى الله.

فهذا ليس هو الندم الشرعي الذي تقوم عليه التوبة.

أما إذا اجتمع الأمران، فندم على ما أصابه من ضرر، وكان في الوقت نفسه نادماً على معصية الله، راغباً في عدم العودة إليها، فهذه توبة يُرجى قبولها.

هل يشترط أن يبقى الإنسان حزيناً طوال حياته؟

لا.

فالندم المطلوب هو أن يتحقق عند التوبة، وأن يكون صادقاً حقيقياً، وليس المقصود أن يعيش الإنسان بعد توبته في حزن دائم أو يظل يعذب نفسه نفسياً بسبب ذنب تاب منه.

بل إذا تاب وندم وأقلع وعزم على عدم العودة، فعليه أن يحسن الظن بالله، ويرجو مغفرته، ويعمل صالحاً.

فالمؤمن يجمع بين الندم على ما مضى، والعمل فيما بقي، والرجاء في رحمة الله.

الندم الصادق يغير حياة التائب:

إذا كان الندم صادقاً، ظهرت آثاره على السلوك.

فمن ندم على معصية عينه، حفظ بصره.

ومن ندم على أكل الحرام، تحرى الحلال.

ومن ندم على ظلم الناس، رد إليهم حقوقهم أو تحلل منهم بحسب الحال.

ومن ندم على تضييع الصلاة، حافظ عليها.

ومن ندم على الغيبة، حفظ لسانه.

ومن ندم على رفقة السوء، فارقها وصاحب أهل الخير.

فالندم الصادق ليس مجرد إحساس عابر، وإنما قوة دافعة إلى الإصلاح.

قال الجنيد: «لا تيأس من نفسك وأنت تشفق من ذنبك وتندم عليه بعد فعلك».

قال سفيان بن عيينة: «البكاء من مفاتيح التوبة، ألا ترى أنه يرق فيندم».

وعن بعض السلف: «طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته».

كان لبعض العصاة أم تعظه ولا يثنى؛ فمر يوماً بالمقابر فرأى عظماً نخراً، فمسه

فانفت في يده [فأنفت نفسه] فقال لنفسه: أنا غدا هكذا! فعزم على التوبة فرفع

رأسه إلى السماء وقال: يا إلهي اقبلني وارحمني. ثم رجع إلى أمه حزينا فقال: يا

أماه ما يصنع بالآبق إذا أخذه سيده؟ فقالت. يغل قدميه ويديه ويخشن ملبسه

ومطعمه. قال: يا أماه أريد جبة من صوف وأقراصا من شعير وافعلي بي ما يفعل

بالعبد الآبق من مولاه، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني. ففعلت به ما طلب.

فكان إذا جن عليه الليل أخذ في البكاء والعويل، فقالت له أمه ليلة: يا بني ارفق بنفسك. فقال: يا أماه إن لي موقفا طويلا بين يدي رب جليل، فلا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل أو إلى شر مقيم، إني أخاف عناء لا راحة بعده [أبدا]، وتوبيخا لا عفو معه. قالت. فاسترح قليلا. فقال: الراحة أطلب يا أماه، كأنك بالخلائق غدا يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار!

فمرت به ليلة في تهجد هذه الآية ﴿فَوَرَبُّكَ لَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] فتفكر فيها وبكى واضطرب وغشي عليه فجعلت أمه تناديه ولا يجيبها فقالت له: قرّة عيني أين الملتقى؟

فقال بصوت ضعيف: إن لم تجديني في عرصة القيامة فسلي مالكا عني!. ثم شهق شهقة فمات. رحمه الله. فخرجت أمه تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار! فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم.^(١)

كيف يستجلب العبد الندم على ذنبه؟

إذا وجد العبد قسوة في قلبه تجاه ذنبه، فعليه أن يتذكر:

عظمة الله الذي عصاه.

نعمة الله التي استعملها في المعصية.

ستر الله عليه وعدم فضحه.

^١ -التبصرة لابن الجوزي (١/ ٣٨)

أن الذنب يترك أثرًا في القلب.

أن الموت قد يأتي بغتة.

الوقوف بين يدي الله يوم القيامة.

أن لذة المعصية قصيرة، بينما تبعثها قد تكون طويلة.

فضل الله عليه إذا تاب وقبل الله توبته.

وكلما ازداد العبد معرفةً بربه، وبنعمته عليه، وبخطر المعصية، ازداد ندمًا على تقصيره، وإقبالًا على التوبة.

ثالثًا: عدم العزم على عدم العودة إلى الذنب

عدم العزم على عدم العودة إلى الذنب مانع من قبول التوبة

من تمام التوبة النصوح أن يعزم العبد عزمًا صادقًا على ألا يعود إلى الذنب الذي تاب منه؛ لأن التوبة ليست مجرد ندم على الماضي، ولا مجرد توقف مؤقت عن المعصية، وإنما هي رجوع صادق إلى الله تعالى، وإقلاع عن الذنب، وندم على فعله، وعزم على عدم العودة إليه.

فإذا قال العبد: «تبت إلى الله»، وهو في الوقت نفسه يعلم من نفسه أنه سيعود إلى المعصية متى سنحت له الفرصة، أو يعزم على العودة إليها بعد مدة، فإن هذه التوبة لم تستوفِ شرطها، ولم تتحقق فيها حقيقة التوبة النصوح.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة النصوح هي التي يصدق فيها العبد مع ربه، فيترك الذنب، ويندم على ما مضى، ويعزم على ألا يعود إليه.

معنى العزم على عدم العودة:

العزم هو قصد القلب وإرادته الجازمة لترك المعصية وعدم الرجوع إليها. لا توبة إلا بهذا العزم.. أما إذا كان يتوب وهو يحن إلى المعصية ولا يزال في قلبه تعلق بها ولا زال عقله يفكر فيها فهذه ليست توبة.. لا بد أن يكون ساعة التوبة قاطع العزم كحد السيف مصرا على ألا يعود إليها كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه. قد يضعف بعد ذلك.. قد تخونه إرادته.. قد يغلبه هواه.. قد يصصره شيطانه ويهزمه.. فالمعركة بين الخير والشر مستمرة ولكن المهم في ساعة التوبة أن يكون عازما عزمًا أكيدا ألا يعود إلى الذنب: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وكيف لا يعزم هذا العزم وهو يعلم أنه مع الذنوب كان متعرضا لعذاب الله في نيران الجحيم يوم القيامة؟.. وأنه كان على شفا حفرة من النار فأنقذه الله منها بالتوبة.. "وإنه ليكاد يصرخ بأعلى صوته: وداعاً.. بل بُعداً لك يا دنيا المعاصي ولا لقاء بيننا بعد اليوم يا دنيا الهوى والشهوات.. وكم أنا سعيدٌ بهذا الصلح مع

الله سبحانه؛ مع ربي الذي لا غنى لي عنه طرفة عين وهو الغني عني وعن خلقه
أجمعين" (١)

هل يشترط أن يقطع التائب أنه لن يعود أبداً؟

لا يشترط أن يملك الإنسان علماً بالمستقبل، ولا أن يضمن لنفسه العصمة من
الذنب، وإنما المطلوب صدق العزم وقت التوبة.

فالعبد لا يعلم ماذا سيقع له غداً، ولكنه يستطيع أن يصدق الله في اللحظة التي
يتوب فيها.

فإذا كان صادقاً حين قال: «اللهم إني لن أعود إلى هذا الذنب، فأعني على
نفسي.»

ثم ضعفت نفسه بعد ذلك، فوقع في المعصية، فعليه أن يجدد التوبة، ولا يمنعه
ذلك من الرجوع إلى الله.

أما أن يجعل احتمال العودة ذريعة لعدم التوبة، فيقول:

«لا فائدة من التوبة، فأنا سأعود إلى الذنب.»

فهذا من تلبيس الشيطان؛ لأن المطلوب من العبد أن يتوب الآن، وأن يجاهد
نفسه الآن، ولا يعلم هل سيعود إلى الذنب أم لا.

١ - مقال التوبة أحمد الحموي

العزم على عدم العودة لا يعني العصمة

ينبغي الحذر من فهم خاطئ لهذا الشرط؛ فليس معنى العزم على عدم العودة أن التائب يصبح معصومًا من الذنوب.

فالإنسان قد يتوب اليوم توبة صادقة، ثم تضعف نفسه غدًا.

والفرق بين التوبة الصادقة ثم الزلل، وبين التوبة الكاذبة مع نية العودة، فرق عظيم.

فالأول: تاب ثم أذنب.

والثاني: أذنب، وقال: تبت، وهو ينوي العودة.

الأول يحتاج إلى توبة جديدة، أما الثاني فلم تتحقق توبته الأولى على وجهها الصحيح.

ماذا يفعل من تاب ثم عاد إلى الذنب؟

لا ينبغي له أن يقول: «لقد تبت ثم عدت، فلا فائدة من التوبة.»

بل عليه أن يعلم أن باب الله مفتوح، وأن عليه أن يجدد توبته كلما زلت قدمه، وأن يجاهد الأسباب التي توصله إلى المعصية.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا

رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

فالتائب الصادق إذا عاد إلى الذنب لا يعود إلى اليأس، وإنما يعود إلى الله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ اِعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غُفِرْتُ لَكَ. قَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: لَا أَذْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ اِعْمَلْ مَا شِئْتَ. (١)

وقد ترجم عليه الإمام ابن حبان في "صحيحه": "ذَكَرْتُ تَفَضُّلَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَى التَّائِبِ الْمُعَاوِدِ لِذَنْبِهِ بِمَغْفِرَةٍ كُلَّمَا تَابَ وَعَادَ يَغْفِرُ" (٢)

قال الإمام أبو العباس القرطبي، رحمه الله: "وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب، وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنها انضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه". انتهى، من " (٣).

١ - «مسند أحمد» (١٦ / ٢٤٦ ط الرسالة) «وأخرجه مسلم (٢٧٥٨)، وابن حبان (٦٢٥)»

٢ - «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (٢ / ٣٩٢).

٣ - المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧ / ٨٦)

وفي الحديث الآخر: عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ
الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»: (١)

كيف يحقق العبد العزم على عدم العودة؟

العزم لا يكون مجرد أمنية، وإنما يحتاج إلى أسباب عملية، منها:

الاستعانة بالله وكثرة الدعاء.

البعد عن أسباب المعصية ومقدماتها.

قطع الصلات التي تقود إلى الذنب.

تغيير الصحبة والبيئة الفاسدة.

ملء أوقات الفراغ بما ينفع.

تذكر عواقب الذنب.

استحضار مراقبة الله تعالى.

الإكثار من الأعمال الصالحة.

عدم التساهل مع بدايات المعصية.

^١ - أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وعبد بن حميد (١١٩٧)، وأبو يعلى (٢٩٢٢)، والحاكم ٤ / ٢٤٤، والدارمي (٢٧٢٧)، وابن عدي ٥ / ١٨٥٠، والبيهقي في الشعب (٧١٢٧)، وابن حبان في المجروحين ٢ / ١١١، والمزي ٢١ / ١٣١.

مراجعة النفس كلما ظهرت بوادر العودة إلى الذنب.

فمن أراد ألا يعود إلى الذنب، فعليه ألا يكتفي بقول: «لن أعود»، بل عليه أن يسأل نفسه:

ما الذي أوقعني في الذنب أول مرة؟ وكيف أتجنب أسبابه مرة أخرى؟

رابعاً: التوبة من حقوق العباد دون رد الحقوق

عدم ردّ حقوق العباد مانعٌ من كمال التوبة وقبولها

إذا كان الذنب متعلقاً بحقٍّ من حقوق العباد، فإن التوبة منه لا تقتصر على الندم على المعصية والاستغفار منها، بل لا بد من إزالة أثر الذنب وردّ الحق إلى صاحبه؛ لأن حق الإنسان لا يسقط بمجرد استغفار الظالم بينه وبين ربه.

فمن سرق مالاً، أو أخذ مالاً بغير حق، أو غشّ في بيع، أو خان أمانة، أو منع إنساناً حقه، أو اعتدى على ماله، فلا تكون توبته كاملة حتى يردّ المال أو الحق إلى صاحبه، أو يطلب منه المسامحة إن كان ذلك ممكناً.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

لماذا يكون ردّ الحقوق من لوازم التوبة؟

لأن التوبة تعني الرجوع عن الذنب وإصلاح ما ترتب عليه، وليس مجرد الشعور بالندم. فمن ظلم إنساناً ثم قال: «تبت إلى الله»، وهو مصرٌّ على إبقاء مظلمته،

فقد بقي جانب من الذنب قائماً؛ إذ إن التوبة الصادقة تقتضي الإقلاع عن المعصية، ومن الإقلاع عن ظلم الناس رفع الظلم عنهم.

ولهذا فإن من شروط التوبة من حقوق العباد:

الإقلاع عن الذنب.

الندم على فعله.

العزم على عدم العودة إليه.

ردُّ الحقوق إلى أصحابها أو التحلل منهم بحسب نوع الحق وإمكان ذلك.

صور من حقوق العباد:

فإن كان الحق مائلاً، وجب رده إلى صاحبه، ولو لم يعلم صاحب المال سبب رده.

وإن كان الحق أمانةً، وجب رد الأمانة إلى صاحبها.

وإن كان الحق ديناً، وجب أدائه، أو الاتفاق مع صاحبه على طريقة للسداد.

وإن كان الحق اعتداءً أو ظلمًا، وجب إزالة الظلم وطلب المسامحة، إذا كان ذلك ممكنًا ولا يترتب عليه مفسدة أكبر.

أما الغيبة والنميمة ونحو ذلك من حقوق الأعراض، فالأمر فيها يحتاج إلى تفصيل؛ فإن كان إخبار الشخص بما قيل عنه سيؤدي إلى زيادة العداوة والأذى، فلا يُشترط إخباره، بل يستغفر له، ويذكره بخير، ويتوب إلى الله تعالى، ويصلح ما أفسده بحسب استطاعته.

وإذا عجز التائب عن رد الحق؟

إذا كان صاحب الحق مجهولاً، أو تعذر الوصول إليه بعد بذل الوسع، أو مات ولم يُعرف ورثته، فإن التائب لا يترك التوبة بحجة العجز، بل يبذل ما يستطيع في الوصول إلى صاحب الحق أو ورثته، فإن تعذر ذلك فلكل صورة حكمها، ويُستعان بأهل العلم في كيفية التخلص من المال أو الحق.

والعبرة أن يكون التائب صادقاً في إرادة التخلص من المظلمة، لا أن يحتفظ بحقوق الناس ثم يكتفي بالاستغفار.

تنبيه مهم

لا يصح أن نقول إن كل من تأخر في رد حقٍّ معين نحكم قطعاً بأن الله لم يقبل توبته؛ فقبول التوبة من أمور الغيب التي يعلمها الله تعالى. وإنما المقصود أن رد حقوق العباد من لوازم التوبة الصحيحة في هذا النوع من الذنوب، وأن إبقاء المظالم مع القدرة على ردها ينافي كمال التوبة.

خامساً: التوبة عند حضور الموت والغرغرة

فإذا بلغت الروح الحلقوم، وعاین الإنسان الموت، انتهى زمن الاختیار، ولذلك لا تكون التوبة في هذه اللحظة كتوبة من تاب قبل حضور الموت.

إغلاق باب التوبة ببلوغ الروح الحلقوم

إذا نزل بالإنسان الموت، وبلغت الروح الحلقوم، أُغلق بابُ التَّوبَةِ:

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا التَّوبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ * وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

ومعنى قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ * ؛ أي: ما كان دون الموت فهو قريب، وقال الحسن البصري - رحمه الله - : ما لم يُغْرِغْ (١)

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: ((إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغْرِغْ))؛ (٢)؛ أي: ما لم تبلغ الروح الحلقوم.

وأخرج الإمام أحمد أيضًا، وابن ماجه من حديث بُسر بن جَحَّاش - رضي الله عنه - : "أن النبي ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا إصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: ((قال

١ - (جامع البيان لابن جرير الطبري (٩/٨) بتصرف).

٢ - «مسند أحمد» (١٠ / ٣٠٠ ط الرسالة) «وأخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وأبو نعيم في "الحلية" ٥ / ١٩٠، والبيهقي في "الشعب" (٧٠٦٣) من طريق علي بن عياش، بهذا الإسناد. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه الحاكم ٤ / ٢٥٧، وأبو نعيم في "الحلية" ٥ / ١٩٠

الله - عز وجل - : ابن آدم، أَنَّى تُعْجِزُنِي، وقد خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ حتى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حتى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنْتَى أَوْأَنُ الصَّدَقَةِ؟))^(١).

فعلى الإنسان المُفَرِّط المُقَصِّر أن يبادر بالتوبة والعمل الصالح قبل مجيء هذه اللحظة؛ فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: ((بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدُّخَانُ، أو الدَّجَالُ، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة)).^(٢)

سادسا: التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها

ومن العلامات الكبرى التي ينتهي عندها زمن التوبة طلوع الشمس من مغربها؛ فعند ظهور هذه الآية العظيمة يُغلق باب التوبة، ولا ينفع الإيمان أو التوبة لمن لم يكن آمن من قبل.

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

^١ - «مسند أحمد» (٢٩/ ٣٨٦ ط الرسالة) «وأخرجه ابن سعد في "الطبقات" ٧/ ٤٢٧، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والثاني" (٨٦٩) و (٨٧٠)، وابن قانع في "معجم الصحابة" ١/ ٧٦، والطبراني في "الشاميين" (١٠٨٠)، والحاكم ٢/ ٥٠٢، وأبو نعيم (١٢٠٠)، وابن الأثير في "أسد الغابة" ١/ ٢١٥»

^٢ - أخرجه أحمد (٢/ ٥١١)، رقم (١٠٦٤٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٧)، رقم (٢٩٤٧). وأخرجه أيضًا: الطيالسي (١/ ٣٣٢)، رقم (٢٥٤٩)، وإسحاق بن راهويه (١/ ٣٧٣)، رقم (٣٨٨)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا» (١)

الحكمة من عدم قبول التوبة حينئذ:

الحكمة أن التوبة شرعت في زمن الغيب والاختبار، أما عند حضور الموت أو ظهور الآية التي لا يبقى معها مجال للشك، فإن التوبة تكون بعد انقطاع زمن الاختيار أو ظهور الحقيقة ظهورًا لا مجال معه للغيب.

ولهذا كان الواجب على المسلم أن يبادر بالتوبة ولا يؤخرها، فلا يقول: أتوب عندما أكبر، أو عندما أفرغ من الدنيا، أو عند المرض، أو في آخر العمر؛ فإن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت، ولا يدري متى يدركه الوقت الذي يُغلق فيه باب التوبة.

التوبة مقبولة ما دام العبد في زمن الاختيار وقبل حضور الموت وطلوع الشمس من مغربها، فإذا أُغلق باب التوبة بفوات زمن القبول لم تنفع التوبة المتأخرة؛ ولذلك فالعاقل من بادر إلى التوبة قبل فوات الأوان، ولم يؤخر الرجوع إلى الله تعالى

١ - «مسند أحمد» (١٢/ ٧٨ ط الرسالة): «وأخرجه مسلم بعد حديث (١٥٧)، وأبو داود (٤٣١٢)، وابن ماجه (٤٠٦٨)، والنسائي في الكبرى» (١١١٧٧)، «



خاتمة

الحمد لله الذي فتح باب التوبة لعباده، ووسّع رحمته حتى شملت كلّ من أقبل عليه بصدق، والصلاة والسلام على من بُعث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ، فقد تبَيَّن من خلال هذا الكتاب أنّ التوبة ليست مجرد كلمة تُقال باللسان، بل هي مقام عظيم من مقامات الدين، لها تعريفها وأركانها وشروطها، ولها موانع تحول دونها، وبواعث تدفع إليها، وموانع قد تحول دون قبولها بعد وقوعها.

وقد رأينا أنّ الموانع الداخلية من يأس وقنوط وتسويف وطول أمل واستهانة بالذنوب وبدع وجهل وإصرار وغفلة وكبر، والموانع الخارجية من اتكال على

الرحمة دون عمل، واغترار بحلم الله، وصحبة سيئة، ووسوسة شيطان، وإسراف في المباحات، وران الذنوب، وعادات وتقاليد، كلّها عقبات حقيقية تُعيق العبد عن الرجوع إلى ربه.

وفي المقابل، تجلّت بواعث التوبة واضحة جليّة: تذكّر الموت، وقصر الأمل، وتدبّر عواقب الذنوب، والدعاء، وصدق النية، ومحبة الله، والمجاهدة، والاشتغال بما ينفع، والبعد عن المثيرات، وصحبة الأخيار، واستحضار فوائد الترك، والعلم، وهجر العوائد والعلائق، وإصلاح الخواطر، والحياء.

كما ظهر أنّ قبول التوبة ليس مضموناً لكلّ تائب، بل قد يُحرم منه من تاب بلسانه وقلبه مقيم على الذنب، أو لم يندم، أو لم يعزم على الترك، أو لم يردّ حقوق العباد، أو تاب عند الغرغرة أو بعد طلوع الشمس من مغربها.

فالعاقل من يبادر بالتوبة النصوح قبل أن تحلّ به الموانع أو يفوته أو ان القبول، ويتّخذ من البواعث زاداً يعينه على الثبات، ويستعين بالله في كلّ خطوة، فإنّ التوبة نعمة من الله، وتوفيق منه، وقبولها فضل منه سبحانه.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب سبباً في إيقاظ القلوب الغافلة، ودفعاً للنفوس إلى باب التوبة، وأن يتقبّل منا ومن كلّ من قرأه، وأن يغفر لنا زلاتنا، ويتوب علينا قبل أن نلقاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وكان الفراغ منه ضحى يوم الثلاثاء غرة شهر ربيع الآخر لسنة ١٤٤٨ من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

العبد الفقير إلى مولاه
السيد مراد سلامة
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين
الموقع الرسمي للشيخ
[/https://www.elsayedmourad.com](https://www.elsayedmourad.com)

المراجع

- ١- الاتباع أنواعه وآثاره في بيان القرآن؛ محمد بن مصطفى السيد-
- ٢- أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة)) لعبد الله الجربوع
- ٣- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان
- ٤- إحياء علوم الدين / لابي حامد الغزالي
- ٥- آداب الشافعي ومناقبه / أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم
- ٦- الآداب الشرعية / محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج،
- ٧- الجامع لعلوم الإمام أحمد - الأدب والزهد- / خالد الرباط، سيد عزت عيد

٨- الأساس في التفسير؛ سعيد حوى

٩- أسباب رفع العقوبة عن العبد لشيخ الإسلام ابن تيمية؛

١٠- الانحرافات الكبرى؛ سعيد أيوب

١١- بحر الدموع/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد

الجوزي

١٢- بداية الهداية/ لابي حامد الغزالي

١٣- بلغة السالك لأقرب المسالك / أحمد الصاوي

١٤- بهجة المجالس وأنس المجالس / لابن عبد البر

التبصرة/ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي

١٥- التعريفات / علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني

١٦- تفسير ابن كثير/ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

١٧- تفسير الألوسي/ شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي

١٨- تفسير التحرير والتنوير/ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن

عاشور

١٩- تفسير الخازن / علاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن

٢٠- تفسير السعدي / عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

٢١- تفسير الطبري/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو

جعفر الطبري

٢٢- تفسير القرآن للشيخ ابن عثيمين

٢٣- تفسير القطان/ إبراهيم القطان

- ٢٤- التفسير الكبير / أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي
- ٢٥- تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي
- ٢٦- التوبة من الذنوب / للغزالي
- ٢٧- التوقيف على مهمات التعاريف / زين الدين محمد المناوي
- ٢٨- الجامع لأحكام القرآن / أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي
- ٢٩- حلية الأولياء لأبي نعيم
- ٣٠- حلية طالب العلم / بكر بن عبد الله أبو زيد
- ٣١- الداء والدواء / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية
- ٣٢- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء / محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم
- ٣٣- الزهد / عبد الله بن المبارك
- ٣٤- الزواجر عن اقتراف الكبائر / لابن حجر الهيتمي
- ٣٥- ستة مجالس / لأبي يعلى الفراء
- ٣٦- السلسلة الصحيحة / للألباني
- ٣٧- سنن ابن ماجه / ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني
- ٣٨- سنن الترمذي / محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي
- ٣٩- سنن الدارمي / أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي
- ٤٠- شجرة المعارف والأحوال - العز بن عبد السلام

- ٤١- شرح السنة، / أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي ا
- ٤٢- شرح المعرفة وبذل النصيحة / أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي
- ٤٣- شرح النووي على مسلم / أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي
- ٤٤- شرح رياض الصالحين / محمد بن صالح بن محمد العثيمين
- ٤٥- شرح مشكل الآثار / أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي
- ٤٦- الشريعة / أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي
- ٤٨- شعب الإيمان / للبيهقي
- ٤٨- صحيح البخاري / محمد بن إسماعيل البخاري
- ٤٩- صحيح ابن خزيمة / أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة
- ٥٠- صحيح مسلم / مسلم بن الحجاج
- ٥١- صفة الصفوة / جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
- ٥٢- صلاح الأمة في علو الهمة / لسيد العفاني
- ٥٣- صيد الخاطر / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية
- ٥٤- طريق الهجرتين / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية
- ٥٥- عمل اليوم والليلة / أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي
- ٥٦- العزلة / أبو سليمان حمد بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي

- ٥٧- عقيدة السلف وأصحاب الحديث / أبو عثمان الصابوني
- ٥٨- غذاء الألباب / شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم
السفاريني
- ٥٩- الفتاوى الكبرى / تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية
- ٦٠- فتح القدير / للشوكاني
- ٦١- فتح المجيد / عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب
- ٦٢- فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب / محمد نصر الدين محمد عويضة
- ٦٣- الفواكه الدواني / أحمد بن غانم
- ٦٤- في ظلال القرآن؛ سيد قطب
- ٦٥- قصر الأمل / لابن أبي الدنيا
- ٦٦- الكبائر / شمس الدين الذهبي
- ٦٧- كشف اصطلاحات الفنون / محمد بن علي التهانوي
- ٦٨- كشف الخفاء / إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي
- ٦٩- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية / أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي
- ٧٠- لسان العرب / محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور
- ٧١- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف / ابن رجب الحنبلي

٧٢-لوامع الأنوار البهية/ شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم
السفاريني

٧٣-المباحث العقدية المتعلقة بالكبائر ومرتكبتها في الدنيا/ لسعود بن عبد
العزيز الخلف؛ نشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

٧٤-المجروحين / محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد،
التميمي، أبو حاتم

٧٥-مجموع فتاوى / تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد
السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية

٧٦-محاسن التأويل/ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق
القاسمي

٧٧-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / أبو محمد عبد الحق بن غالب
بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي

٧٨-مختصر المعتمد / القاضي أبي يعلى

٧٩-مدارج السالكين / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن
قيم الجوزية

٨٠-المستدرك على الصحيحين / أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن
محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري

٨١-مسند الإمام أحمد/ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن
أسد الشيباني

٨٢-المنتخب من مسند عبد بن حميد/ أبو محمد عبد الحميد بن حميد

- ٨٣- معالم التنزيل في تفسير القرآن / للبغوي
- ٨٤- المفردات في غريب القرآن / أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف
بالراغب الأصفهاني
- ٨٥- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم / أبو العباس أحمد بن عمر
بن إبراهيم القرطبي
- ٨٦- مقال التوبة أحمد الحموي
- ٨٧- مقاييس اللغة / أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي
- ٨٨- مناقب عمر بن الخطاب / جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي
بن محمد الجوزي
- ٨٩- منهاج السنة النبوية / تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد
السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية
- ٩٠- الموسوعة الفقهية الكويتية
- ٩١- نزهة الأعين النواظر / جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن
محمد الجوزي
- ٩٢- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم / عدد من المختصين
بإشراف الشيخ / صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي
- ٩٣- الوابل الصيب / محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن
قيم الجوزية

الإنتاج العلمي للمؤلف

الإنتاج العلمي للمؤلف / الشيخ السيد مراد سلامة

القسم الأول. الردود والفرق والمذاهب والاعتقاد

- ١- تبصرة الموحدين بخيانات ومخططات الشيعة على الإسلام والمسلمين.
- ٢- التسعون العلية من أسماء الذات الإلهية.
- ٣- طقوس وشعائر وأعياد شيعية في ميزان الشريعة الإسلامية.
- ٤- فتاوى الأئمة الأعلام في بيان حقيقة وعقيدة الرافضة اللثام.
- ٥- فكر المؤامرة عقيدة وحقيقة لا خيال.
- ٦- المباهلة في الإسلام.
- ٧- الشيطان كأنك تراه.

القسم الثاني: كتب الحديث الشريف والسنة والآثار:

- ٨- الإذاعة بذكر أربعين حديثاً في السمع والطاعة.
- ٩- الأربعون البرزخية.

- ١٠-الأربعون البلدانية.
- ١١-الأربعون التيسيرية من سنة خير البرية.
- ١٢-الأربعون الرضائية من أحاديث خير البرية.
- ١٣-الأربعون السماوية من أحاديث صفوة البشرية.
- ١٤-الأربعون الكتابية.
- ١٥-الأربعون النبوية في حرمة الدماء البشرية.
- ١٦-الأربعون النبوية لمغفرة خطايا الإنسانية.
- ١٧-الأربعون النورانية في وصف صفوة البشرية.
- ١٨-البدر الأتم في ذكر أربعين حديثاً قال فيها الصحابة الله ورسوله أعلم.
- ١٩-الدر المختار من استفسارات الصحابة عن غريب قول النبي المختار.
- ٢٠-الدر المختار من الأحاديث الواردة في البحار.
- ٢١-فتح الجليل بذكر الأحاديث التي ذكر فيها النخيل.
- ٢٢-فتح الكبير المتعال بالأحاديث الطوال.
- ٢٣-متن الأربعين الشتوية من أحاديث خير البرية.
- ٢٤-متن الأربعين المرادية إياكم واختراق المنهيات.
- ٢٥-متن الأربعين من أهوال يوم الدين.
- ٢٦-الأحاديث الواردة في فضائل سيناء.
- ٢٧-الأحاديث والآثار الواردة في محبة الوطن عند الشعراء.
- ٢٨-الأحاديث النبوية في أحكام الأذان وآدابه.
- ٢٩-الأحاديث والدروس المستفادة من الهجرة النبوية.
- ٣٠-نظم السبائك بذكر من تصلي عليهم ومن تلعنهم الملائك.
- القسم الثالث: كتب الخطب والمواعظ والدروس المنبرية:**
- ٣١-إرواء المشتاق من خطب الأخلاق.

- ٣٢- الخطب المرادية عن شمائل خير البرية.
- ٣٣- الخطب والمواعظ الباهرة في ذكر الموت وأهوال المقبرة.
- ٣٤- الدرر البهية من المقدمات المنبرية.
- ٣٥- العشریات المرادية من الخطب المنبرية.
- ٣٦- المسك الأذفر للدرس والموعظة والمنبر.
- ٣٧- موسوعة القصص المنبرية - الجزء الأول.
- ٣٨- موسوعة القصص المنبرية - الجزء الثاني.
- ٣٩- النسمات المباركات من مقدمات المناسبات.
- ٤٠- تحفة الواعظ للخطب والمواعظ (ألف قصة وقصة).

القسم الرابع قسم الخطب الأخلاقية والمعاملات

- ٤١- كتب ومجالس شهر رمضان المبارك وصلاة التراويح.
- ٤٢- إشراق المصابيح لجلسة صلاة التراويح.
- ٤٣- الأماليح لجلسة صلاة التراويح.
- ٤٤- ري الظمآن من دروس العصر في رمضان.
- ٤٥- فيض الرحمن دروس وخواطر شهر رمضان.
- ٤٦- القصص المليح لجلسة صلاة التراويح.
- ٤٧- الكنوز الرمضانية.
- ٤٨- اللآلئ الحسان من أوصاف شهر رمضان.
- ٤٩- مشكاة المصابيح لجلسة صلاة التراويح.
- ٥٠- المواعظ العصرية للدروس الرمضانية.
- ٥١- نفح الريح لجلسة صلاة التراويح.

القسم الخامس : الفتاوى والأحكام الفقهية والشرعية:

- ٥٢- أريجُ العطر في بيان أحكام زكاة الفطر.

- ٥٣- تحفة الأنام بفتاوى شهر رجب الحرام.
- ٥٤- تحفة الملهوف بأحاديث الخسوف والكسوف.
- ٥٥- تشنيف الأذان بما ورد في فضل وآداب وأحكام الأذان.
- ٥٦- الدرر البهية من آداب وأحكام التحية.
- ٥٧- الدرر البهية من الفتاوى الرمضانية.
- ٥٨- الدرر السنية من فتاوى الأضحية (١٣٠ سؤال وجواب).
- ٥٩- قرة العينين بفتاوى أبي همام بالحرمين.
- ٦٠- المشكاة في بيان آداب وأحكام اصطحاب الأطفال إلى الصلاة.
- ٦١- رسالة عاجلة إلى من فاته الحج.
- ٦٢- مخالفات في الطرق والمواصلات رؤية شرعية.
- ٦٣- أسباب غلاء الأسعار وقلة البركة من منظور الشرع.

القسم السادس: السيرة النبوية والشمال والخصائص

- ٦٤- تحفة الداعية والإمام بدروس سيرة خير الأنام.
- ٦٥- رد القوي المتين على من سب أو عاب النبي الأمين صلى الله عليه وسلم.
- ٦٦- السراج الوهاج من عبر ودروس الإسراء والمعراج.
- ٦٧- العناية الربانية بصفوة البشرية.
- ٦٨- الفتح الرباني لمنهج الإمام الرمضاني.
- ٦٩- فتح رب البرية من خطب ودروس الهجرة النبوية.
- ٧٠- الكوكب الوهاج من خطب الإسراء والمعراج.
- ٧١- مؤذنو رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- ٧٢- النسوة يسألن والنبي يجيب.

القسم السابع موسوعة "حرص السلف وتفريط الخلف"

- ٧٣- حرص السلف على اغتنام الأوقات وتفريط الخلف.

- ٧٤- حرص السلف على إقامة العدل في الأرض وتفريط الخلف.
- ٧٥- حرص السلف على الاتباع وتفريط الخلف.
- ٧٦- حرص السلف على الزهد في الدنيا وإفراط الخلف في الحرص عليها.
- ٧٧- حرص السلف على الصلاة وتفريط الخلف.
- ٧٨- حرص السلف على العمل والكسب الحلال وتفريط الخلف.
- ٧٩- حرص السلف على الغيرة على دينهم وأعراضهم وتفريط الخلف.
- ٨٠- حرص السلف على القرآن الكريم تلاوة وعملا وتفريط الخلف.
- ٨١- حرص السلف على المحاسبة وتفريط الخلف.
- ٨٢- حرص السلف على النصيح لولاة الأمور وتفريط الخلف.
- ٨٣- حرص السلف على بر الوالدين وتفريط الخلف.
- ٨٤- حرص السلف على تقوية روابط الأخوة والحب في الله وتفريط الخلف.
- ٨٥- حرص السلف على طلب العلم وتعليمه وتفريط الخلف.
- ٨٦- حرص السلف على قيام الليل وتفريط الخلف.

القسم الثامن: التراجم والسير والتاريخ الإسلامي

- ٨٧- أنبياء وعلماء وقضاة خلف القضبان.
- ٨٨- تذكرة النبلاء بفضائل سيئات.
- ٨٩- ريب المنون في ذكر من مات بالطاعون من الصحابة والعلماء والقضاة والخلفاء والأمرء والشعراء.
- ٩٠- صور من وصايا الأنبياء والخلفاء والعلماء والآباء والصحابة والتابعين عند موت.
- ٩١- فتح الكريم الوهاب بتراجم العلماء العزاب.
- ٩٢- صور مشرقة من الثبات على الإيمان للعبارة والعظة.
- ٩٣- صور مشرقة من ثبات الصالحين ومواقفهم تاريخياً.
- ٩٤- مواقف حاسمة من تاريخ المرأة المسلمة.

٩٥- الفائزون بدعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

القسم التاسع: التربية والأسرة والشباب والتربية الجنسية:

٩٦- أخطأنا في تربية الأبناء.

٩٧- أي بنيتي تلك هي وصيتي.

٩٨- التربية الجنسية في الإسلام.

٩٩- الدرر الغراء من وصايا الآباء للأبناء.

١٠٠- الفتاوى العصرية في المسائل الجنسية.

١٠١- صور مشرقة من حياة الأطفال.

القسم العاشر: القضايا المعاصرة، الأخلاق، والمجتمع:

١٠٢- أخطاء ومخالفات في الطرق والمواصفات رؤية شرعية

١٠٣- أسباب غلاء الأسعار وقلة البركة من منظور الشرع.

١٠٤- تذكرة النبلاء بمحبة الوطن عند الشعراء.

١٠٥- الدر المنضود في الإصلاح والتغيير المنشود.

١٠٦- درر الحكم، والأمثال لرسائل الجوال.

١٠٧- فيض العزيز الغفار في بيان حقوق وأحكام الجار.

١٠٨- اللامبالاة في حياة الفرد والأسرة والمجتمع (المظاهر - الأسباب - الآثار -

العلاج).

١٠٩- مفاتيح النجاح العشرة.

١١٠- نبع الإيمان بخطب محبة وحقوق الأوطان.

١١١- القول الجلي في مخالفات شرعية يقع فيها رواد التواصل الاجتماعي.

القسم الحادي عشر النوازل، مآسي الأمة، وقضية فلسطين

١١٢- بيت المقدس بين وحشية الغاصبين ورحمة الفاتحين.

١١٣- مجازر في تاريخ الأمة الإسلامية (دماء وأشلاء .. عويل وبكاء).

١١٤-مجازر في تاريخ غزة.

١١٥-مجازر من تاريخ سوريا دماء وأشلاء.

١١٦-هزة غزة (هزة إيمان واعتقاد وعزة).

القسم الثاني عشر سلسلة كتب الموانع:

١١٧-موانع طلب العلم.

١١٨-موانع الهداية وأسبابها.

١١٩- موانع التوبة و أسبابها.

الفهرس

المقدمة.....٣

الفصل الأول تعريف التوبة وأركانها وشروطها.....٥

المبحث الأول: تعريف التوبة لغة واصطلاحاً.....٦

المبحث الثاني التوبة النصوح.....٩

المبحث الثالث: أركان التوبة وشروطها.....١٣

المبحث الرابع: هل تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؟ ٢٧

المبحث الخامس: فضل التوبة وقبولها..... ٣٧

الفصل الثاني موانع

التوبة..... ٤٣ المبحث الأول

الموانع الداخلية (النفسية والفكرية) ٤٤

، ولا: اليأس والقنوط من رحمة الله: الشعور بأن الذنوب عظيمة لا

تُغفر..... ٤٥

ثانيا: التسويف وتأجيل التوبة: «سوف أتوب لاحقا» ٥٧

ثالثا: طول الأمل..... ٦٠

رابعا: الاستهانة بالمعاصي أو الاعتياد عليها حتى تصبح طبيعية..... ٦٣ -

خامسا: البدعة:..... ٦٨

سادسا: الجهل بخطورة الذنوب أو بآثارها على القلب والدنيا والآخرة..... ٧١

سابعا: الإصرار على الذنب مع الاستغفار اللساني فقط (توبة الكذابين)

..... ٧٤

ثامنا: المانع الغفلة..... ٧٧

تاسعا: مانع الكبر والعزة بالإثم من موانع التوبة..... ٨٠

المبحث الثاني: الموانع الخارجية والشيطانية..... ٨٤

أولاً: الاتكال على سعة رحمة الله دون

عمل..... ٨٥

ثانياً: الاغترار بحلم الله وإمهاله للعصاة..... ٩١

ثالثاً: الصحبة السيئة والبيئة التي تشجع على المعصية..... ٩٩

رابعاً: وسوسة الشيطان وتزيين المعصية أو تثبيط التوبة..... ١٠٧

خامساً: الإسراف في المباحات حتى تقود إلى

المحرمات..... ١١٢

سادساً: الذنوب المتراكمة التي تُحدث الران على القلب..... ١١٦

سابعاً: العادات والتقاليد..... ١٢١

الفصل الثالث: بواعث التوبة..... ١٢٥

أولاً: تذكر الموت والقُدوم إلى الله والوقوف بين يديه:

..... ١٢٦

ثانياً: قصر الأمل..... ١٣٠

ثالثاً: تدبّر عواقب الذنوب..... ١٣٥

رابعاً: الدعاء..... ١٤٢

خامساً: أصدق النية وأخلص التوبة..... ١٤٤

سادساً: امتلاء القلب من محبة الله - عز وجل

..... ١٤٧

سابعاً: المجاهدة..... ١٥٠

ثامناً: الاشتغال بما ينفع، وتجنب الوحدة والفراغ..... ١٥٤

تاسعاً: البعد عن المثيرات، وما يُذكر بالمعصية..... ١٥٨

عاشراً: مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار..... ١٦١

الحادي عشر: استحضار فوائد ترك المعاصي..... ١٦٣

الثاني عشر: استحضار أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه

الشهوة..... ١٦٧

الثالث عشر العلم: فالعلم نور..... ١٧٠

الرابع عشر: هجر العوائد..... ١٧٤

الخامس عشر هجر العلائق..... ١٧٦

السادس عشر إصلاح الخواطر والأفكار..... ١٧٨

السابع عشر: الحياء..... ١٨٢

الفصل الرابع: موانع قبول التوبة..... ١٨٨

أولاً: التوبة باللسان مع بقاء القلب على الذنب..... ١٩٠

ثانياً: عدم الندم على الذنب..... ١٩٤

ثالثاً: عدم العزم على عدم العودة إلى الذنب..... ٢٠٢

رابعاً: التوبة من حقوق العباد دون رد الحقوق..... ٢٠٧

خامساً: التوبة عند حضور الموت والغرغرة..... ٢١٠

سادساً: التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها..... ٢١٢

الخاتمة..... ٢١٤

المراجع..... ٢٣١

الإنتاج العلمي للمؤلف..... ٢٢٢

الفهرس..... ٢٢٩